الفصل الثاني والستون

التوحيد والشرك

كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب : كـان منهم من آمن بالله ، وآمن بالتوحيد ، وكان منهم من آمن بالله ، وتعبد للأصنام ، اذ زعموا أنهـا تقربهم اليه . وكان منهم من تعبد للأصنام ، زاعمين أنها تنفع وتضر ، وأنهـا هي الضارة النافعة [1] . وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف ، فلم يعتقد بشيء ، ومنهم من تزندق ، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الانسان في هذه الحياة ، وببطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشر ولا كتاب ، ولا كل شيء ممـا جاء في الإسلام عن يوم الدين .

ومذهب أهل الأخبار ، أن العرب كانوا على دين واحد ، هو دين ابراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد . الدين الذي بعث بأمر الله من جديد ، فتجسد وتمثل في الاسلام . وكان العرب مثل غيرهم ، قد ضلوا الطريق ، وعموا عن الحق ، وغووا بعبادتهم الأصنام . حببها لهم الشيطان ، ومن اتبع هواه من العرب، وعلى رأسهم ناشر عبادة الأصنام في جزيرة العرب : (عمرو بن لحي) .

وذهب (رينان) Renan الى ان العرب هم مثـل سائر الساميين الآخرين

---

١ أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله النجيرمي الكاتب ، أيمان العرب في الجاهلية ، (تحقيق محب الدين الخطيب) ، (القاهرة ١٣٨٢) « ص ١٢ وما بعدها » .

موحدون بطبعهم ، وان ديانتهم هي من ديانات التوحيد . وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين[1] .

وقد أقام (رينان) نظريته هذه في ظهور عقيدة التوحيد عند الساميين من دراسته للآلهة التي تعبّد لها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة (ال) (ايل) في لهجاتهم ، فادعى ان الشعوب السامية كانت تتعبد لإلـه واحد هو (ال) (ايل) الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات ، فدعي بأسماء أبعدته عن الأصل ، غير ان أصلها كلها هو إلـه واحد ، هو الإلـه (ال) (ايل)[2] .

و (التوحيد) الايمان بإلـه واحد أحد لا شريك له ، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير . لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام[3]. ويقال للديانة التي تدين بالتوحيد : Monotheism في اللغات الأوروبية،من أصل يوناني هو Monos ، بمعنى (واحد)، و Theos بمعنى (إلـه) ، لأنها تقول بوجود إلـه واحد[4] . ويتمثل القول في التوحيد في اليهودية وفي الاسلام .

والشرك في تفسير العلماء الاسلاميين ، ان يجعل لله شريكاً في ربوبيته، غير الله مع عبادته ، والايمان بالله وبغيره ، فصاروا بذلك مشركين[5] . ومن الشرك ان تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . ومن عدل به شيئاً من خلقه فهو مشرك ، لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد[6] . ويقال له Polytheismus = Polytheism في اللغات الأوروبية . من أصل يوناني هو Polys ، ومعناها كثرة وتعداد ، و Theos بمعنى (إلـه) . فيكون المعنى : القول بتعدد الآلهة ، أي الشرك . نقيض القول بالتوحيد Monotheismus . فالشرك هو الدين المعاكس لدين التوحيد . ويختلف عن عقيدة الـ Polydoemonism القائلة بوجود الأرواح والجن من حيث الطبيعة Nature ، وبوجود أثر لها في حياة الانسان، كما يختلف

---

١ Ency. Religi., Vol. II, p. 383

٢ E. Renan, Histoire Générale et Système comparé des Langues Sémitiques, Paris, 1855, Vol. I, Chapt I, p. 1. ff.

٣ تاج العروس (٢/٥٢٦) ، (وحد) .

٤ Ency. Religi., 10, p. 112.

٥ تاج العروس (٧/١٤٨) ، (شرك) .

٦ اللسان (١٠/٤٤٩ وما بعدها) ، (شرك) .

عن القائلين بمبدأ (الحلول) Pantheism من حيث حلول الإلـه في الخلق والخلق في الإلـه[1].

وقد ذهب أهل الأخبار الى أن العرب الأولى كانت عـلى ملة ابراهيم ، من الايمان بإلـه واحد أحد ، اعتقدت به ، وحجّت الى بيته ، وعظمت حرمـه ، وحرمة الأشهر الحرم ، بقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان، وابتعدوا عن دين آبائهم وأجدادهم ، حتى أعادهم الإسلام اليه[2] .

ونظرية أن العرب جميعاً كانوا في الأصل موحدين ، ثم حادوا بعد ذلك عن التوحيد فعبدوا الأوثان وأشركوا ، نظرية يقول بها اليوم بعض العلماء مثل (ويليم شميد) Wilhelm Schmidt الذي درس أحوال القبائل البدائية وأنواع معتقداتها ، فرأى ان عقائد هذه القبائل البدائية الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها ودرسها الى عقيدة أساسية قائمة على الاعتقاد بوجود (القـديم الكل) أو (الأب الأكبر) الذي هو في نظرها العلة والأساس . فهو إلـه واحد . وتوصل الى أن هذه العقيدة هي عقيدة سبقت التوحيـد ، ثم ظهر من بعدها الشرك . وقد أطلق عليهـا في الألمانية مصطلح Urmonotheismus أي التوحيد القديم[3] .

ويأخذ بهذه النظرية علماء اللاهوت وبعض الفلاسفة ، وفي الكتب السماوية تأييد لها أيضاً . فالشرك وعبادة الأصنام بحسب هذه النظرية ، نكوص عن التوحيد ، ساق اليه الانحطاط الذي طرأ على عقائد الانسان فأبعده عن عبادة الله[4] .

اننا لا نستطيع ان نتحدث عن عقيدة التوحيد عند العرب قبل الاسلام استناداً الى ما لدينا من كتابات جاهلية ، لعدم ورود شيء عن ذلك . فالنصوص التي وصلت الينا ، هي نصوص فيها أسماء أصنام ، وليس فيها ما يفهم منه شيء عن التوحيد عند العرب قبل الميلاد وبعده ، إلا ما ورد في النصوص العربيـة الجنوبية المتأخرة من عبـادة الإلـه (ذ سموى) (ذو سموى) ، أي صاحب السماء ، بمعنى إلـه السماء . وهي عبادة ظهرت متأخرة في اليمن بتأثير اليهودية والنصرانية

---

١ Ency. Religi., Vol. 10, p. 112.

٢ النجيرمي ، أيمان العرب (١٢ وما بعدها) ، الاصنام (ص ٦) .

٣ Schmidt, S. 637, W. Schmidt, Der Ursprung der Gottesidee, 4 ed., 1912.

٤ Ency. Religi., Vol. 7, p. 113.

اللتين دخلتا اليمن ووجدتا لها أتباعاً هناك ، بل حتى هذه العبادة لا نستطيع أن نتحدث عنها حديثاً يقينياً ، فنقول انها عبادة توحيد خالص تعتقد بوجود إلـه واحد على نحو ما يفهمه أهل القول بالتوحيد .

وقد ذكرت جملة (ذ سموى) في نص مع الإلـه (تالب ريمم) (تالب ريام) ، رب قبيلة (همدان) . ويدل ذكر اسم هذا الإلـه مع اسم إلـه آخر على ان عقيدة التوحيد لم تكن قد تركزت بعد ، وانها كانت في بدء تكوينها ، فلما اختمرت في رؤوس القوم ، ذكرت وحدها في النصوص المتأخرة ، دون ذكر أسماء الأصنام الأخرى ، مما يشير الى حدوث هذا التطور في العقائد ، والى ظهور عقيدة التوحيد والايمان بإلـه السماء عند جماعة من العرب الجنوبيين . وقد أكملت هذه العقيدة بأن صار إلـه السماء رب السماء والأرض[1] .

ولم يكن (ذ سموى) ، (ذ سمى اله) ، (ذو السماء إلـه) أي (صاحب السماء) ، أو (إلـه السماء) ، أو (رب السماء) ، إلـه جماعه معينة أو إلـه قبيلة مخصوصة ، بل هو إلـه ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد على ما يظن تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (ربّ السماء) ، فهو إلـه واحد مقره السماء . ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولها العربية الجنوبية ، فظهرت جماعة تأثرت بالديانتين تدعو الى عبادة إلـه واحد هو (رب السماء)[2] .

وأما عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، فهي عبادة توحيد ، ظهرت من جزيرة العرب فيما بعد الميلاد . وقد وردت كلمة (رحمنن) ، أي (الرحمن) ، في نص يهودي كذلك وفي كتابات (ابرهة) ، وردت في نصوص عربية جنوبية أخرى وفي نصوص عثر عليها في أعالي الحجاز[3] . وقد كان أهل مكة على علم بالرحمن ، ولا شك ، باتصالهم باليمن وباليهود . ولعلهم استخدموا الكلمة في

---

١ Handbuch, I, S. 102.

٢ Handbuch, I, S. 104, Rivista, 1955, Fax. I, II, p. 109, Le Muséon, 1954, tome LXVII, p. 118.

٣ Glaser 554, 406 = 410, Halevy 63, CIH, Pars 4, Tomus, I, Capt. I, No. 6, p. 15 - 9, II, 537 - 543, p. 257 - 300, CIH, 6, 45, 537, 538, 539, 541, 542, 543, MM, Altsüd., 19, Rep. Epig., 3904, 4069, 4109, Stambul, 7608, Asmara, I, Le Muséon, LII, p. 51.

معنى الله . وإن ذكر علماء اللغة أو علماء التفسير أن اللفظة لم تكن معروفة عند أهل مكة في الجاهلية [1] .

وقد جاء في النص اليهودي المذكور : (الرحمن الذي في السماء واسرائيل وإلـه اسرائيل رب يهود) . وقد حمل هذا النص بعض الباحثين على القول بأن العرب الجنوبيين قد أخذوا هذه الكلمة وفكرتهم عن الله من اليهودية، وان فكرة التوحيد هذه انما ظهرت بتأثير اليهودية التي دخلت الى اليمن . غير ان من الباحثين من رأى خلاف هذا الرأي . رأى ان افتتاح النص بذكر الرحمن ، ثم اشارته بعد ذلك الى إلـه يهود ، وورود كلمة (الرحمن) في نص آخر يعود الى سنة (٤٦٨) للميلاد[2] . كتبه صاحبه شكراً للرحمن الذي ساعده في بناء بيته : كل هذه وأسباب أخرى ، تناقض رأي القائلين بأن عقيدة الرحمن عقيدة اقتبست من اليهود[3] .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (الرحمن) اسم من أسماء الله مذكور في الكتب الأول ، وان اللفظة عبرانية الأصل ، وأما (الرحيم) فعربية . وذكروا ان (الرحمن) اسم مخصص بالله ، لا يجوز أن يسمى به غيره[4] . وقد أنشدوا للشنفرى أو لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها [5]

فيظهر من هذا البيت أن الشاعر كان يدين بعبادة الرحمن . ونجد مثل هذه العقيدة في قول سلامة بن جندل الطهوي :

---

١ Handbuch, I, S. 248, Halevy, Revue des Etudes Juives, 1891, Vol. 22, pp. 125 - 129, 281, 23, p. 304, Margoliouth, The Relations, p. 67.

٢ CIS, 7.

٣ Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 67.

٤ تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٦)، تفسير الطبري (١/٤٤) ، تفسير ابن كثير (١/٢١) .

٥ تفسير الطبري (١/٤٤) ، وورد :
لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربي يمينها
الاشتقاق (ص ٣٧) .

عجلتم علينا عجلتينا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق[1]

فإن ذلك يعني أن قوماً من الجاهليين كانوا يدينون بعبادة (الرحمن) . ومما يؤيد هذا الرأي ما ورد من أن بعض أهل الجاهلية سموا أبناءهم عبد الرحمن ، وذكروا أن (عامر بن عتوارة) سمى ابنه (عبد الرحمن)[2] .

وقد وردت لفظة (الرحمن) في شعر ينسب الى (حاتم الطائي) هو :

كلوا اليوم من رزق الإلـه وأيسروا وإن على الرحمان رزقكم غداً

وحاتم من المتألهة ، ويعده البعض من النصارى و (الرحمن) نعت من نعوت الله في النصرانية ، من أصل (رحمونو) ، Rahmono[3] ، فهل عبر شاعرنا بهذه اللفظة عن هذا المعنى النصراني ؟

« وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولهذا قال كفّار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لعلي: اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . رواه البخاري . وفي بعض الروايات : لا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة »[4] .

وذكر أن المشركين سمعوا النبيّ يدعو ربه ، يا ربنا الله ويا ربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو إلهين ، فقالوا : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى . وأن أحدهم سمع الرسول يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال لأصحابه : انظروا ما قال ابن أبي كبشة دعا الرحمن الذي باليمامة. وكان باليمامة رجل يقال له الرحمان[5] .

---

١ تفسير الطبري (١/٤٤) ، (سلامة بن جندب الطهوي) ،
عجلتم علينا اذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق
تفسير ابن كثير (١/٢١) ،
٢ الاشتقاق (ص ٣٧) .
٣ غرائب اللغة (١٨٢) .
٤ تفسير ابن كثير (١/٢١) .
٥ تفسير الطبري (١٥/١٢١) ، سورة الاسراء ، الآية ١١٠ ، روح المعاني (١٥/١٧٦) .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن ذلك الشخص الـذي زعموا انه كان يُعرف بـ (رحمان اليمامة) . لكنهم ذكروا ان (مسيلمة الكذاب) ، كـان يقال له رحمان اليمامة [1] . فهل عنوا بـ (رحمان اليمامة) مسيلمة نفسه ، أم شخصاً آخـر كان يدعو لعبادة (الرحمان) قبله ؟

وورد ان قريشاً قالوا للرسول : « انا قد بلغنا انك انما يعلمك رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ولن نؤمن به أبداً » . فنزل فيهم قوله : « كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربي لا إلـه إلا هو عليه توكلت واليه متاب »[2] . وذكر بعض أهـل الأخبار : كان مسيلمة بن حبيب الحنفي ، قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين ، وذلك قبل أن يولد عبدالله أبو رسول الله[3] .

وورد في بعض أقوال علماء التفسير ان اليهود قالوا : (ما لنا لا نسمع في القرآن اسماً هو في التوراة كثير . يعنون الرحمان ، فنزلت الآية)[4] .

ويرى المستشرقون ان عبادة (الرحمن) (رحمنن) ، انما ظهرت بين الجاهليين بتأثير دخول اليهودية والنصرانية بينهم[5] .

وقد ذكر (اليعقوبي) أن تلبية (قيس عيلان) ، كانت على هذا النحو : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك أنت الرحمان ، أتتك قيس عيلان ، راجلها والركبان »[6] وأن تلبية عك والأشعرين ، كانت :

نحج للرحمان بيتـاً عجباً مستتراً مغيبـاً محجباً [7]

وفي التلبيتين المذكورتين دلالة على اعتقاد القوم بإلـه واحد ، هو الرحمان .

---

١ اللسان (١٢/٢٣١) ، (رحم) ، تاج العروس (٨/٣٠٧) ، (رحم) .
٢ سورة الرعد ، الآية ٣٠ ، الروض الأنف (١/٢٠٠) ، سيرة ابن هشام (١/٢٠٠) (حاشية على الروض) ، تفسير الطبري (١٣/١٠١) .
٣ الروض الأنف (١/٢٠٠) .
٤ القرطبي ، الجامع (١٠/٣٤٣) .
٥ G. Ryckmans, Inscriptions Sudarabes, X, No. 515, Le Muséon, 66, 1953, p. 314, Ryckmans 330. b., CIH 541, G. Ryckmans, in Le Muséon, 59, 1946, p. 165, A. Jamme, La Religion Sud-Arabe, Preislamique, 275.
٦ اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٧ اليعقوبي (١/٢٢٦) .

ولم ترد لفظة (الرحمان) إلاّ مفردة ، فليس لها جمع ؛ لأنها تعبير عن توحيد ، وليس في التوحيد تعدد ، فالتعدد شرك . على عكس لفظة (رب) ، التي تؤدي معنى (إلَه) ، وهي تعبير عن اعتقاد ، لا اسم علم لإلَه ، ولذلك وردت لفظة (أرباب) بمعنى آلهة تعبيراً عن تعدد الآلهة ، وهو الشرك . وقد كان الجاهليون يقولون : ربّي وربك وربنا وأربابنا ، كما يقولون إلهي وإلاهك وآلهتنا [1] .

وقد تكون كلمة (ه رحم) (هارحيم) ، أي (الرحيم) الواردة في النصوص الصفوية[2] وفي النصوص السبئية اسم إلَه[3] ، وقد تكون صفة من صفات الآلهة على نحو ما تؤديه كلمة (الرحيم) من معنى في الاسلام .

وللعلماء آراء في ظهور عبادة الشرك . ورأي رجال الدين منهم ، ان الناس كانوا أمة واحدة في الدين ، كانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلّوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين[4] . أما غيرهم من العلماء الذين يستندون الى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل علم النفس وعلم الاجتماع،فيرون ان عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالنسبة الى ظهور الوثنية والشرك. ظهرت بعد أن توسعت مدارك الانسان ، فشعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع،وصار يقتصد في الشرك ، الى أن اهتدى الى عبادة إلَه واحد .

ظهور الشرك :

هناك عدة عوامل دعت الى ظهور الشرك ، أي تعدد الآلهة ، وأثرت في تعدد الآلهة . هناك عوامل طبيعية وعوامل رسّية Characteristics ، وعوامل

---

١ هناك ربك ما أعطاك من حسن وحيثمايك أمر صالح فكن
شرح ديوان زهير (١٢٣) .

٢ Handbuch, I, S. 248, Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitiques, Paris, 1868 - 1877, p. 142, No. 402, Dussuad, voyage Archéologique au Safa, Paris, 1901, No. 258, Mission, p. 88, Les Arabes en Syrie, p. 152.

٣ CIS, 4, 2, No. 40, p. 63, Grahmann, S. 246.

٤ Ency. Religi., 10, p. 112.

سياسية وعوامل تأريخية واجتماعية واقتصادية وعوامل أخرى ، كل هذه أثرت في شكل الشرك وفي تعدد الآلهة وفي كيفية تصور الناس لآلهتهم . ولا يعني هذا انها أثرت كلها مجتمعة وفي آن واحد ، انما يعني ان ظهور الشرك وشكله هو نتيجة عوامل متعددة وأسباب مختلفة أثرت في ظهوره وفي تكوين صورة الآلهة في نظر المؤمنين بها المتعبدين لها .

وإنّا لنجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإلـه تختلف باختلاف ثقافتهـا ومستواها الاجتماعي ، وللوضع السياسي دخل كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين . لقد كان لكل قبيلة إلـه خـاص بتلك القبيلة يحميها من الأعداء ومن المكاره ، ويـدافع عنها في الحروب والملمات ، ويعطيها النصر . كما كان للقرى والمدن آلهتها الخاصة بها . فإذا تحالفت القبائل أو القرى أو المدن تحالفت آلهتها معها ، وكوّنت حلفاً وصداقـة متينة بينها . أما إذا تحاربت هذه القبائل او القرى او المدن ، فيكون لهذه الحرب أثر كبير في مستقبل الآلهة وفي عددها . فقد ينصرف المغلوبون عن آلهتهم الى عبادة آلهة أخرى ، لأنها أصبحت ضعيفـة لا قدرة لها على الدفاع عن عَبَدَتها . وقد يتأثر الغالبون بعبـادة المغلوبين الذين خضعوا لهم ، فيضيفون آلهة المغلـوبين الى آلهتهم ، فيزيد بذلك عدد الآلهة ، ولا سيما إذا كان المغلوبون أصحاب ثقافة عالية ، وكان لهم ادب وفن .

والعادة أن آلهة القبائل أو المدن الرئيسية تكون هي الآلهة الرئيسية للحلف أو في المملكة . ويكون إلـه القبيلة ذات النفوذ أو العاصمة عندئذ ، هو إلـه الحكومـة الكبير . أما الآلهة الأخرى ، فتكون دونه في المنزلة ، ولهذا يرد اسمها في الغالب بعد اسم الإلـه الكبير .

كذلك يجب ألا ننسى عامل الجوار والاتصال الثقافي في ظهور الشرك ، فكثيراً ما يؤدي هذا الاتصال الى اقتباس آلهة المجاورين واضافتها الى مجموعـة الآلهة عند ذلك الشعب ، فيزيد بذلك عدد الآلهة أو ينقص . فقد تطغى الآلهة الجديدة المقتبسة على الآلهة القديمة ، ويقل شأن بعضها فيهمل ، ثم يموت اسمها . وقد يحدث ذلك بطريق الحرب أيضاً ، كما ذكرت ، فيتغير العدد بذلك .

ولرجال الدين ولسادات القبائل وللأمراء وللملوك أثر في ظهور الشرك . كان في إمكانهم اقرار مستقبل الآلهة بإضافة آلهة جديدة على الآلهة القديمة ، أو بإبعـاد

إلَه أو آلهة عن عبادة قومهم ، فيزيد أو ينقص بذلك عـــدد الآلهة . وقد كان سادات القبائل والوجوه يغيّرون عبادة أتباعهم بإدخال عبادة إلَه جديد ، يأخذونه من زيارتهم لبلـــد غريب ، كأن يكون أحدهم قد أصيب بمرض وهو في ذلك البلد ، فيشار عليـــه بالتعبد وبالتقرب لإلَه ذلك البلد أو لأحد آلهته ، فيصادف أن يشفى ، فيظن أنه شفي ببركة ذلك الإلَه وبقدرته وقوته ، فيتقرب له ويتعبد له ، فإذا أعاد حمل عبادته الى أتباعه ، فيعبد عندهم . ويضاف عـــلى آلهتهم ، ويصير أحدهم وقد يطغى اسمه عليها ، وذلك حسب درجة تعلق سيد القبيلة به، وحسب درجة ومكانة سيد القبيلة بين الناس. وتأريخ الجاهلية مليء بحوادث تبديـل آلهة بسبب تبديل سادات القبائل ووجوه الناس لعقائدهم ولآلهتهم ، فتدخل القبيلة كلها في العبادة الجديدة . وقد كان اسلام قبائل برمتها ، بسبب دخول سيدها في الاسلام ، فالناس تبع لساداتهم ولقادتهم ، و « الناس عـلى دين ملوكهم » كما هو معروف ومشهور في أقوال العرب .

ومعظم أسماء الآلهة صفات للآلهة لا اسم علم لها ، فودّ ورضى والمقـه وذات حميم وأمثالها ، هي صفات في الأصل ، مضى عليها الزمـن ، فاستعملت استعمال الأسماء الأعلام . وظن أنها آلهة قائمة بذاتها . فلما جاء الباحثون وجمعوها حسبوها أسماء آلهة ، فزاد بذلك عدد الآلهة ، واعتبرت الأسماء الكثيرة مـن سماء الإفراط في الشرك . بينما هي صفـــات لإلَه ، أو آلهة لا يزيد عددها على ثلاثة ، هي الثالوث الكواكبي المقدس الذي تعبدوا له .

ولا بد لنا من الإشارة الى اصطلاح أطلقـــه (ماكس مولر) Max Müler على مرحلة من العبـــادة هي بين بين ، لا هي توحيد Monotheism ولا هي شرك Polytheism ، بل هي مرحلة تعبد فيها الانسان على رأى هذا الباحث الى إلَه واحد هو إلَه القبيلة ، مع الاعتقاد بوجود آلهة أخرى[1] . وهـذا الاصطلاح هو Henotheismus . وقد رأى (فلايدلر) Pfleidler أن الساميـين لم يكونوا موحدين بطبعهم كما ذهب (رينان) الى ذلك ، بل كانوا يدينون بإلَه قومي ، ومن هذه العقيدة ظهر التوحيد الخالص كما حدث عند الاسرائيليين[2] .

---

١ Max Müller, Varlesungen über den Ursprung und die entwicklung der Religion, 1880, Schmidt, S. 261.

٢ Ency. Religi., 10, p. 811, Pfleidler, Philosophy of Religion, London, 1885 - 1888, III, p. 19.

وفي القرآن الكريم إشارات الى أنواع من الشرك كان عليه الجاهليون ، وفيه تعريف لمعنى الشرك ، فالشرك في قوله تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون)[1] عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعادن ، أي مما لا روح له وقابل للكسر[2] . وفي بعض الآيات أن من أنواع الشرك القول بأن الجن هم شركاء لله[3] . ومن أنواعه أيضاً القول بأن الملائكة هم شركاء لله وبناته[4] . وفي آيات أخرى ان من الشرك اتخاذ آلهة أخرى مع الله[5] . والآلهة هنا شيء عام . فيه تأليه الكواكب وعبادة الأشياء غير المنظورة ، أي غير المادية وعبادة الأصنام .

وفي القرآن الكريم جواب عن فلسفة القوم وتعليلهم لعبادة الأصنام واتخاذهم (أولياء) من دون الله ، إذ يقولون جواباً عن الاعتراض الموجه اليهم في عبادة غير الله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون)[6] . ويتبين من هذه الآية ومن آيات أخرى ان فريقاً من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وانه هو الذي خلق الخلق ، وأن له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ، ولكنهم عبدوا الأصنام وغيرها ، واتخذوا الأولياء والشفعاء لتقربهم الى الله زلفى[7] .

وفي كتاب الله مصطلحات لها علاقة بعبادة الشرك ، منها (شركاء) جمع (شريك) ، وهو من اتخذه المشركون شريكاً مع الله[8] . و (أنداد) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحب الله)[9] (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا ، فإن مصيركم الى النار)[10] . و (أولياء)

---

١ الاعراف ، الآية ١٩١ وما بعدها ، يونس ، الآية ١٨ .
٢ تفسير الجلالين (١/١٣٩) ، « طبعة المطبعة المليجية » .
٣ الانعام ، الآية ١٠٠ ، الجلالين (١/١١٦) .
٤ سبأ ، الآية ٤٠ وما بعدها .
٥ الانبياء ، الآية ٢٤ .
٦ الزمر ، الآية ٣ ، الجلالين (٢/١٣٣) .
٧ الزمر ، الآية ٣ ، الانعام ، الآية ١٤٨ ، النحل ، الآية ٣٥ .
٨ الانعام ، الآية ١٠٠ ، راجع « فتح الرحمن لطالب آيات القرآن » (ص ٢٣٨) ، حيث تجد المواضع الواردة في القرآن الكريم .
٩ البقرة ، الآية ١٦٥ .
١٠ ابراهيم ، الآية ٣٠ .

و (وليّ) و (ولياً)[1] و (شفعاء) و (شهداء)[2] . فهذه الكلمات وأمثالها تعبر عن عقائد الجاهليين قبيل الاسلام . وعن اعتقادهم في عبادة أشياء أخرى مع الله كانوا يرون انها تستحق العبادة ، وانها في مقابل الله في العرف الاسلامي ، أو انها شركاء في ادارة الكون أو انها مساعدة لله .

والشرك في تفسير العلماء المسلمين ، أن تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكاً له . فهو يشمل أشياء عديدة . منها عبادة الكواكب ، أي عبادة القوى الطبيعية ، وعبادة الجن والملائكة والأمور الخفية ، وبمعنى آخر عبادة القوى الخفية ، أو القوى الروحية ، وعبادة الأمور المادية كالأصنام والأحجار ، باعتبار انها تشفع للانسان عند الآلهة ، وعبادة الانسان والحيوان ، الى غير ذلك من عبادات .

ومن العبادات التي يجب أن يشار اليها عبادات اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة ، تمثل عقائد قديمة ، ولبعضها أتباع أحياء يرزقون . ولبعض منها آثار ومظاهر ، دخلت في الأديان الباقية ، وصبغت بصبغتها ، وهي من بقايا العقائد الدينية البدائية التي رسخت في النفوس وفي القلوب حتى صار من الصعب على الانسان أن يتخلص منها ، فبقيت راسخة تحت مسميات جديدة. ومن تلك العقائد : الـ Shamanism ، و Tatemism ، و Fetishism ، و Ancestor - worship ، و Animism ، وغيرها من مسميات سيرد الحديث عنها في هذا الكتاب[3] .

أما الـ (شمانية) ، فقد أخذت من كلمة (شمن) Shaman ومعناها كاهن أو طبيب (شمان) ، أو من كلمة Shemen التي معناها صنم أو معبد، أو من أصل آخر . ويراد بها اليوم ديانة تعتقد بالشرك ، أي تعدد الآلهة Polytheism ، أو بعبادة الأرواح Polydomonism مع عبادة الطبيعة Nature - worship لاعتقادها بوجود أرواح كامنة فيها . ويعتقد في هذا الدين أيضاً بوجود إلـه أعلى هو فوق جميع هذه الأرواح والقوى المؤلهة ، وبتأثير السحر[4] .

---

١ راجع فهارس القرآن الكريم ، مثل فتح الرحمن (ص ٤٨٠) .
٢ فتح الرحمن (ص ٢٤٠) .
٣ A.A. Bowman, Studies in the Philosophy of Religion, London, 1938, p. 67.
٤ Ency. Religi., II, p. 441.

ويستعين الـ (شمن) ، وهو الكاهن أي رجل الدين ، بالقوى الخارقة التي لديه والتي لا يملكها الرجل الاعتيادي في اعتقاد أبناء هذه العقيـــدة في الاتصال بالأرواح وبما وراء الطبيعة للتأثير فيها . ولدى هذا الكاهن أرواح مأمورة بـــين يديه للقيام بما يطلب منها القيام به . وهو يمارس أعمالاً سحرية للتأثير في الأرواح. فللسحر في هذا الدين أهمية ومقام . ويقوم الـ (شمن) عند أكثر المتدينين بهذا الدين بأعمال الطبيب[1] .

وأما (الطوطمية) ، فقد تحدثت عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب[2]. وقد بينت عقيدتها في (الطوطم) ، ورأي العلماء في كيفية ظهور المجتمع (الطوطمي) ، وهو مجتمع يقوم على أساس الجماعة أو القبيلة ، يرتبط أفراده برباط ديني مقدس، هو رباط (الطوطم) ، رمز الجماعة .

وأما الـ Fetishism ، من أصل Factitus اللاتيني ، بمعنى السحر ، أي القوة المؤثرة الخفية Magic ، فللباحثين في تأريخ الأديان آراء متعددة في تعريفها وفي تثبيت حدودها[3] . والرأي الغالب الشائع بينهم انها عبادة أو تقديس للأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها ؛ وقوى غير منظورة في تلك الأشياء تلازمها ملازمة مؤقتة أو دائمة . ويحمل الـ Fetish (البد) لجلب السعد إلى صاحبه . وهو في نظر (تيلور) Dr. Tylor بمثابة (إلـه البيت) وقوة فاعلة خفية تطرد الخبائث عن صاحبه ، وتجلب الخير له . ولحدوث الأحلام ونشوئها في نظر الأقوام البدائية دخل كبير في رأي العلـــماء في ظهور هذه العقيدة[4] .

وأصحاب هذه العقيدة لا ينظرون الى تلك الأشياء المادية على انها نفسها ذات قوة فعالة خفية ، وانها الرمز أو الصورة للإلـه المنسوب ذلك الشيء اليـه ، بل هم يرون ان تلك الأشياء ليست سوى منازل أو مواضع لاستقـــرار تلك القوى المؤثرة التي يكون لها دخل في إسعاد الانسان . وهو يقدس الأشياء المادية كالحجارة

---

١ Ency. Religi., Vol. 11, p. 441.

٢ (ص ٥١٨ وما بعدها) .

٣ Ency. Religi., Vol. V, p. 894.

٤ Ency. Brita., Vol. 9, p. 202, Taylor, Primitive Culture, II, p. 143, Waitny, Anthropologie der Naturvölker, II, S. 174.

مهما كانت صغيرة أو كبيرة ، مهندمة ومصقولة صقلتها يد الانسان ، ومستها أو لم تمسها يد ، بل كانت على نحو ما وجدها في شكلها الطبيعي، لأنه حينما يتقرب إلى تلك الحجارة ، لا يتقرب اليها نفسها ، بل يتقرب الى الروح التي تحل فيها. فالروح هي المعبودة ، لا الحجر الذي تحل الروح فيه ، وليس الحجر أو المواد الأخرى إلا بيتاً أو فندقاً تنزل الروح فيه .

أما عبادة الأسلاف Ancestor worship ، فهي فرع من أهم فروع الدين في نظر بعض العلماء ، بل هي الأساس الذي قام عليه الدين في نظر آخرين ، ولا سيما عند (سبنسر) H. Spencer [1] . وأما الأسباب التي دعت البشر الى هذه العبادة ، فهي الحب والتقدير للأبطال والرؤساء والأمل في استمرار دفاعهم عنهم وحمايتهم للجماعة التي تنتمي اليها كما كانت تفعل في حياتها وردّ أذى الأعداء الأموات منهم والأحياء . فتمجيد الأبطال والخوف منهم ، هو الذي حمل البشر على عبادة الأسلاف على رأي . وهناك من رأى ان تمجيد الأبطال والاشادة بذكرهم ، هو الذي أوجد هذه العبادة ، ومنهم من نسبها الى الخوف منهم حسب [2] .

وسواء أكان منشأ هذه العبادة الحب والتقدير أو الخوف أو كلاهما، فإن أساس هذه العقيدة هو الايمان ببقاء الروح ، روح الميت ، وان بإمكان هذه الروح نفع الأحياء أو إلحاق الأذى بهم . ورؤية الأحياء وسماع توسلاتهم ودعواتهم لها . فالميت وإن كان قد دفن في قبره وغيب بين التراب ، إلا انه يسمع ويعي ، فروحه حية وبإمكانه النفع والضر . وهذه العقيدة هي التي حملت بعض الشعوب على مخاطبة الأرواح من فجوات مخصوصة في الأرض ومن مواضع أخرى لاستشارتها في بعض الأمور التي تهمها ، وللتحدث معها في مسائل خطيرة كتقديم مشورة أو أخذ رأي أو استفسار عن اسم قاتل أو سارق . ولهذه الغاية اتخذت مواضع مقدسة Oracle يتقرب فيها الى الأرواح وللاستفسار منها . فكان في اليونان مثلاً موضع شهير عرف بإسم Thesprotia ، وموضع آخر عرف بإسم Phigalia في (أركاديا) Arcadia [3] . وكان في ايطاليا موضع للتنبؤ يقع على بحيرة

---

١ Ency. Relig., I, pp. 425, 427.
٢ Jevons, Introduction to History of Religion, p. 54.
٣ Herodothus, V, 92, Pausanus, III, 17, 8, 9.

(أفيرنوس) Avernus [1] . وكانت العادة في هذا الموضع أن يتقرب الراغبون في استشارة الأرواح الى الموضع المقدس بتقديم ضحية ، وعندئذ ينام السائل في الموضع المقدس ، فتظهر له الروح في المنام ، فتحدثه بما يحتاج اليه [2] .

ولعبادة السلف علاقة بعبادة الأصنام Idolatry . ويلاحظ ان عبادة السلف تقود أتباعها في بعض الأحيان الى الاعتقاد بأن قبيلتهم تنتمي الى صلب جد واحد، أصله حيوان في رأي الأكثرين ، أو من النجوم في بعض الأحيان . وهذا ما يجعل هذه العقيدة قريبة من (الطوطمية) [3] .

ولهذه العبادة أثر كبير في نظام أصحابها الاجتماعي ، إذ هي تربط الأجيال الحاضرة بالأجيال الماضية بروابط متينة ، وتؤلف من أصحاب هذا المذهب وحدة قوية ، كما ان لها أثراً مهماً في الأسرة ، فهي في الواقع عبادة تخص الأسرة قبل كل شيء [4] .

ومعارفنا عن عبادة السلف عند الجاهليين قليلة ، ويمكن أن نستنتج من أمر النبي بتسوية القبور ونهيه عن اتخاذها مساجدَ ومواضع للصلاة ان الجاهليين كانوا يعبدون أرواح أصحاب هذه القبور ويتقربون اليها . ولعل في عبارة (قبر ونفس) أو (نفس وقبر) الواردة في بعض النصوص الجاهلية ما يؤيد هذا الرأي ، فإن النفس هي الروح .

ومن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس وإحداث جروح في الجسد واحتفالات دفن الموتى ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها أو إقامة شعائر دينية فوقها أو علامات خاصة بالميت أو الموتى للتقديس [5] . ونحن اذا استعرضنا روايات الأخباريين نجد آثار هذه العبادة معروفة بين الجاهليين .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور اتخذت مزارات، كانت لرجال دين ولسادات قبائل يقسم الناس بها ، ويلوذون بصاحب القبر ويحتمون به ، كالذي كان من

---

١ Ency. Religi., I, p. 428.

٢ Ency. Religi., Vol. I, p. 430, Crooke, Popular Religion, I, 179, Wilken, Het Animisme bij de Volken Indischen Archipel, 1884 - 1885, I, 74 ff.

٣ Ency. Religi., I, p. 536. Taylor, Primitive Cultures, II, p. 193,

٤ Ency. Religi., I, p. 432.

٥ Hastings, p. 300, Ency. Religi., 7, p. 325, «Ancestor - Worship ».

أمر ضريح (تميم بن مرّ) ، جدّ (تميم) ، وكالذي ذكروه من أمر (اللات) من أنه كان رجلاً في الأصل ، اتخذ قبره معبداً ثم تحول الرجل الى صنم . ونجد في كتب الحديث نهياً عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها . وقد أشارت الى اتخاذ اليهود والنصارى قبور سادتهم وأوليائهم مساجد ، تقربوا اليها ، لذلك نهي أهل الاسلام من التشبه بهم في تعظيم القبور[1] ، كما نهى عن تكليل القبور وتجصيصها ، والتكليل رفع القبر وجعله كالكلّة ، وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور[2] .

وأما الـ Animism ، فهو اعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلّها Nature ، ولذلك يؤله كثيراً من المظاهر الطبيعية المرئية وغير المرئية منها ، لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، منها ما يكون في جسم ، وهو (النفس) Saul ، ومنها ما لا يكون في الأجسام وهو (الروح) Spirit[3] .

ويمكن تقسيم هذه العبادة الى ثلاثة أصناف : عبادة النفس ، نفس الإنسان أو الحيوان وخاصة منها عبادة الأموات Necrolatry ، وعبادة الأرواح Spiritism ، وعبادة الأرواح التي تحلّ في المظاهر الطبيعية ، إما بصورة مؤقتة وإما بصورة دائمة Naturism[4] .

والآراء في هذه المعتقدات لا تزال في مراحلها الأولى ، وهي موضع جدل بين العلماء ، لأنها قائمة على أساس الملاحظات والتجارب التي حصلوا عليها من دراساتهم لأحوال المجتمعات البدائية لهنود أمريكا ولقبائل افريقية واسترالية ، ولا يمكن بالطبع حدوث اتفاق في الدراسات الاستقصائية المبنية على المشاهدات والملاحظات. وإذ كانت هذه الدراسات غير مستقرة وغير نهائية حتى الآن ، فقد صعب بالطبع تطبيقها على معتقدات العرب قبل الاسلام ، وزاد في هذه الصعوبة قلة معلوماتنا في هذه الأمور . وليس من الممكن في نظري أن نتوصل إلى نتائج علمية غير قابلة للأخذ والرد في هذه الموضوعات في الزمن الحاضر ، بل ولا في المستقبل

---

١ صحيح مسلم (٢/٦٦) ، (باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد) .

٢ اللسان (١١/٥٩٥) ، (كلل) .

٣ Schmidt, S. 24.

٤ Ency. Religi., I, p. 535.

القريب ، ما لم يحدث ما ليس في الحسبان ، من العثور على نصوص دينية تكشف لنا عن عقائد الجاهليين .

ونستطيع ان نقول إجمالاً ان من الجاهليين من كان يدين بعبادة الأرواح على اختلاف طرقها ، ويؤمن بأثرها . وللعلماء من مفسرين ولغويين وغيرهم تفاسير عديدة للروح ، تفيدنا كثيراً في معرفة آراء الجاهليين عنها ، كما ان للاخباريين قصصاً عنها وعن استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر وغير ذلك ، يمكن أن تكون موضوع دراسة قيّمة لمن يريد التبسط في دراسة هذه الأمور .

عبادة الكواكب :

وقد رأى بعض العلماء ان عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل . وان أسماء الأصنام والآلهة ، وإن تعددت وكثرت ، إلا انها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي ، هو : الشمس والقمر والزهرة . وهو رمز لعائلة صغيرة ، تتألف من أب هو القمر ، ومن أم هي الشمس ، ومن ابن هو الزهرة . وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة ، هي في الواقع نعوت لها ، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى لله في الاسلام .

وقد لفت الجرمان السماويان : الشمس والقمر ، نظر الانسان اليهما بصورة خاصة ، لما أدرك فيهما من أثر في الانسان وفي طباعه وسحنه وعمله ، وفي الجو الذي يعيش فيه ، وفي حياة زرعه وحيوانه ، وفي تكوين ليله ونهاره والفصول التي تمر عليه . فتوصل بعقله يوم ذاك إلى انه نفسه ، وكل ما يحيط به ، من فعل هذين الجرمين ومن أثر أجرام أخرى أقل شأناً منهما عليه . فنسب اليهما نموه وتكوينه وبرءه وسقمه ، وحياة زرعه وماشيته ، ورسخ في عقله انه إن تقرب وتعبد لهما ، ولبقية الأجرام ، فإنه سيرضيها ، وستغدق عليه بالنعم والسعادة والمال والبركة في البنين ، فصار من ثم عابد كوكب .

ونجد في حكاية كيفية اهتداء (ابراهيم) إلى عبادة إلّه واحد ، الواردة في سورة الأنعام ، تفسيراً لسبب تعبد الانسان للأجرام السماوية . (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نُري

ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين)[1] . فقد لفت ذلك الكوكب نظر ابراهيم ، وبهره بحسن منظره وبلونه الزاهي الخالب ، فتعبد له ، واتخذه رباً ، فلما أفل ، ورأى كوكباً آخر أكبر حجماً وأجمل منظراً منه ، تركه ، وتعبد للكوكب الآخر ، وهو القمر . فلما أفل ، ورأى الشمس بازغة ، وهي أكبر حجماً وأظهر أثراً وأبين عملاً في حياة الانسان وفي حياة زرعه وحيوانه وجوّه ومحيطه ، ترك القمر وتعبّد للشمس ، فيكون قد تعبّد لثلاثة كواكب ، قبل أن يهتدي إلى التوحيد ، هي القمر والشمس ، والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين[2] .

ويشير القرآن الكريم في موضع آخر الى عبادة الجاهليين للأجرام السماوية ، ولا سيما الشمس والقمر ، ففيه : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إيّاه تعبدون»[3].

وهذه الأجرام السماوية الثلاثة هي الأجرام البارزة الظاهرة التي بهرت نظر الإنسان ، ولا سيما الشمس والقمر . والزهرة ، وإن كانت غير بارزة بروز الشمس والقمر ، غير أنها ظاهرة واضحة مؤثرة بالقياس الى بقية الأجرام ذات مظهر جذاب ، ولون باهر خلاب ، وقد يكون هذا المظهر الجميل الأخاذ هو الذي جعلها ابناً للشمس والقمر في أساطير العرب الجنوبيين .

واعتبر الجاهليون القمر أباً في هذا الثالوث ، وصار هو الإلـه المقدم فيه ، وكبير الآلهة . وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل

---

١ الانعام ، الآية ٧٥ وما بعدها .
٢ تفسير الطبري (١٥٨/٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢٥/٧) .
٣ فصلت ، الآية ٣٧ .

التغليب[1] ، وعلى الذهاب الى أن هذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العربية الجنوبية لا نجده في أديان الساميين الشماليين ، مما يصح أن نجعله من الفروق المهمة التي تميز الساميين الجنوبيين عن الساميين الشماليين[2] .

ويرجع أولئك المستشرقون هذا التباين الظاهر بين عبادة الساميين الجنوبيين وعبادة الساميين الشماليين وتقديم القمر على الشمس عند العرب الجنوبيين الى الاختلاف في طبيعة الأقاليم والى التباين في الثقافة ، ففي العربية الجنوبية يكون القمر هادياً للناس ومهدئاً للأعصاب ، وسميراً لرجال القوافل من التجّار وأصحاب الأعمال في الليالي اللطيفة المقمرة ، بعد حرّ شديد تبعثه أشعة الشمس المحرقة ، فتشل الحركة في النهار ، وتجعل من الصعب على الناس الاشتغال فيه ، وتميت من يتعرض لأشعتها الوهاجة في عز الصيف القايظ . إنها ذات حميم حقاً ، فلا عجب إذا ما دعيت بـ (ذت حمم) ، (ذات حميم) ، (ذات الحميم) عند العرب الجنوبيين . ولذلك ، لا يستغرب إذا قدمه العرب الجنوبيون في عبادتهم على الشمس، وفضلوه عليها . واذا كانت الشمس مصدراً لنموّ النباتات نموّاً سريعاً في شمال جزيرة العرب ، فإن أشعة الشمس الوهّاجة المحرقة تقف نموّ أكثر المزروعات في صيف العربية الجنوبية ، وتسبب جفافها واختفاء الورد والزهر في هذا الموسم ، فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة أثر في العقلية التي كوّنت تلك الأساطير[3] .

ويرى (هومل) أن ديانات جميع الساميين الغربيين والعرب الجنوبيين هي ديانة عبادة القمر أي أن القمر فيها مقدم على الشمس ، وهو عكس ما نجده في ديانة البابليين . ويعلل ذلك ببقاء الساميين الغربيين بدواً مدة طويلة بالقياس الى البابليين . ويلاحظ أيضاً أن الشمس هي أنثى ، وأما القمر فهو ذكر عند الساميين الغربيين ، وهو بعكس ما نجده عند البابليين[4] .

والاسم الشائع للقمر بين الساميين ، هو : ورخ ، و (سن) (سين) ، وشهر . وشهر خاصة هو الاسم الشائع المستعمل للقمر في الكتابات الجاهلية التي

---

١ D. Nielsen, Die Altarabische Mondreligion.

٢ Handbuch I, S. 213.

٣ Handbuch. I, S. 213, Die Altarbische Mondreligion, S. 49, Die Sabaische Gott Ilmukah, S. I.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 85.

عثر عليها في العربية الجنوبية وفي النصوص التي عثر عليها في الحبشة، وفي الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب . ويلاحظ ان الصور التي ترمز إلى القمر مما عثر عليه في تلك النصوص هي متشابهة تقريباً ، ومتقاربة في الشكل ، مما يدل على ان الأسطورة الدينية التي كانت في مخيلة عبدة القمر عنه كانت متشابهة ومتقاربة ومن أصل واحد . أما كلمة (قمر) ، فلم ترد حتى الآن في النصوص الجاهلية التي وصلت الينا ، وهذا مما حمل بعض المستشرقين على القول بأن هذه التسمية متأخرة [1] .

ويلاحظ ان النصوص العربية الجنوبية لا تسمي القمر بإسمه دائماً في النصوص، وإنما تشير اليه بكناه وصفاته في الغالب . ويظهر ان ذلك من باب التأدب والتجمل أمام رب الأرباب . ونجد هذا التأدب في مقام الأرباب عند جميع البشر ، فلا يخاطب الانسان ربه كما يخاطب غيره من الإنس ، أي بإسمه المعتاد ، لأنه الرب والإلـه ، وهو فوق الانسان . وهو إذا خاطبه بإسمه ، فإنما يفعل ذلك على سبيل التودد والتقرب والتحبب إلى الرب ، فهو نوع من أدب التقرب إلى الآلهة .

ولما كان القمر هو الأب ، خاطبه المؤمنون به بـ (ودم ابم) ، وبـ (ابم ودم) ، أي (وَدٌّ أبٌ) ، و (أب وَدٌّ) ، ولا غرابة في ذلك . فإذا كان القمر أباً للآلهة ، فلِمَ لا يكون إذن أباً للانسان عبده ، وهو في حاجة شديدة اليه ، حاجة العبد إلى سيده والولد إلى والده ؟

ودعوه أيضاً بـ (عم) ، ولِمَ لا ؟ أليس العم في مقام الأب ؟ ثم إنّ العرب لا تزال تخاطب الكبير بـ (عم) دلالة على تقديره واحترامه ، فليس بغريب إن نادى المؤمنون إلههم القمر : يا عم ! ليرحمهم وليبارك فيهم ، إن في هذا النداء تقرباً وتواضعاً واشعاراً بضعف السائل تجاه المخاطب [2] .

والأب عند العرب كلّ من كان سبباً في إيجاد شيء أو اصلاحه أو ظهوره . ويقوم العم عندهم مقام الأب . ولذلك سمّي مع الأب الأبوين [3] .

وقد عثر على أخشاب وأحجار حفرت عليها أسماء ودّ ، أو جمل (ودم

---

١ Handbuch, I, S. 214.

٢ Handbuch, I, S. 214.

٣ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الاصفهاني (ص ٤ وما بعدها) ، مادة أبا في كتاب الالف .

ابم) ، أو (ابم ودم) ، وذلك فوق أبواب المباني ، لتكون في حمايته وللتبرك باسمه وللتيمن به ، كما وجدت كلمة (ودّ) محفورة على أشياء ذات ثقوب ، تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة يتبرك بها . فعلوا ذلك كما يفعل الناس في الزمن الحاضر في التبرك بأسماء الآلهة والتيمن بها لمنحها الحبّ والبركة والخيرات .

ونعت القمر بـ (كهلن) ، أي (الكهل) في نصوص المسند ، وفي نصوص عثر عليها في الأقسام الشمالية من العربية الغربية . وتعني لفظة (كهلن) ، القدير والمقتدر والعزيز[1] . وهي من نعوت هذا الإلـه .

ونعت بنعوت أخرى ، مثل (حكم) ، أي (حكيم) و (حاكم) و (صدق) أي (صديق) و (صادق) ، و (علم) ، أي (عليم) .و (عالم) و (علام)، وبنعوت أخرى عديدة من هذا القبيل ، وهي من نوع (الأسماء الحسنى) لله عند المسلمين . ترينا الإلـه إلهاً قديراً قوياً عالماً حامياً مساعداً لأبنائه المؤمنين به . يحبّهم حبّ الأب الشفيق لأبنائه الأعزاء .

والإلـه (القمر) ، هو **الإلـه** (المقه) عند السبئيين . وهو إلـه سبأ الكبير. وهو (عم) عند القتبانيين . كما سأتحدث عن ذلك في أصنام الكتابات ، وهو ودّ عند المعينين و (سن) (سين) ، عند الحضارمة .

واتخذ الثور من الحيوانات رمزاً للقمر،ولذلك عُدّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز الى الآلهة . ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غير العرب من الشعوب الساميّة . وقد نص على اسمه في الكتابات ، إذ قيل له (ثور)[2] .

وقد ذكر (الألوسي) ، ان عبدة (القمر) « اتخذوا له صنماً على شكل عجل ، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة في كل شهر ، ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه »[3] . ولم يشر الى اسم الجاهليين الذين فعلوا ذلك . فلعله قصد عبدة القمر بصورة عامة من العرب وغيرهم .

---

١ Halevy 237, Chrestoma. 91, 97, Grundriss, I, S. 136, Glaser, 284.

٢ Glaser 1546, Wiener Museum 5, Handbuch, I, S. 214.

٣ بلوغ الارب (٢/٢١٦) .

وذهب بعض الباحثين إلى احتمال كون (الحية) تمثل الإلـه القمر ، وهي تمثل الروح أيضاً عند بعض آخر[1] .

والشمس ، هي من أول الأجرام السماوية التي لفتت اليها أنظار البشر بتأثيرها في الانسان وفي الزرع والماء . وهذا التأثير البارز جعل البشر يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها ، فعبدها وألّهها ، وشاد لها المعابد ، وقدّم لها القرابين . وهـي عبادة فيها تطور كبير ورقي في التفكـير إذا قيست بالعبادات البدائية التي كان يؤديها الانسان للأحجار والنباتات والأرواح .

وقد تعبّد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب . وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد ، في زمن لا نستطيع تحديده ، لعدم وجود نصوص لدينا يمكن أن تكشف لنا عن وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب . وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين ، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين . وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ، وجعل الموت عقوبة لمن يعبد الشمس . ومع ذلك ، عبدت في مدن يهوذا . وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ (بيت شمس) Beth Shemesh[2] .

والشمس أنثى في العربية ، فهي إلهة ، أمـا في كتابات تدمر فهي مذكر ، ولذلك فهي إلـه ذكر عند التدمريين . ويرى (ولهوزن) Wellhousen أن ذلك حدث بمؤثرات خارجية[3] . وكانت عبادة الشمس شائعة بـين التدمريين . وورد في الكتابات التي عثر عليها في (حوران) أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى ، ويدلّ على ذلك شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة . وذكر (سترابو) أن Helios أي الشمس ، هي الإلـه الأكبر عند النبط . ولكن الكتابات النبطية لا تؤيد هذا الرأي . والإلـه الأكبر فيها هو (اللات) . فلعل (سترابو) قصد بـ Helios اللات . وإذا كان هذا صحيحاً ، فتكون اللات هي الشمس .

والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ (عبد شمس). وقد ذكر الأخبـاريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد

---

١ Arabien, S. 269.

٢ Hastings, p. 880, Die Araber, III, S. 125. ff.

٣ Reste, S. 60 Waddington 2569, 2587, Vogue, Palmy., 2, 8, 19, 75, 116, 125, Reste, S. 60.

الشمس ، فدعي بـ (عبد شمس)[1] . وقد ذكر ان بني تميم تعبدت له . وكان له بيت ، وكانت تعبده بنو أدّ كلها : ضَبّة ، وتميم ، وعدي ، وعُطُل : وثور ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن بن معاوية بن شُريف بن حروة ابن أسيد بن عمرو بن تميم ، فكسره هند بن أبي أهالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[2] .

وذكر أن (عبد شمس)، اسم أضيف الى شمس السماء ، لأنهم كانوا يعبدونها. والنسبة (عبشمي)[3] .

وكانت العرب تسمّي الشمس (الإلهة) تعظيماً لها ، كما يظهر ذلك من هذا الشعر :

تروّحنا من اللعباء قصراً فأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا
على مثل ابن ميّة فانعياه تشق نواعم البشر الجيوبا[4]

ويقال لها (لاهة) بغير ألف ولام .

وعرفت الشمس بـ (ذُكاء)[5] عند الجاهليين. وقد تصور أهل الجاهلية الصبح ابناً للشمس تارة ، وتصوروه تارة حاجباً لها . فقيل حاجب الشمس . وقيل يقال للصبح ابن ذكاء لأنه من ضوئها[6] .

وكانوا يستقبلون الشمس ضحى. ذكر (الأسقع) الليثي ، انه خرج إلى والده، فوجده جالساً مستقبل الشمس ضحى[7] . وإذا تذكرنا ما أورده أهل الأخبار عن

---

١ منتخبات (ص ٥٧) .
٢ المحبر (٣١٦) .
٣ تاج العروس (٤/١٧٢) ، (شمس) .
٤ ينسب هذا الشعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث ، وقيل لبنت عبد الحارث اليربوعي وقيل : لنائحة عتيبة بن الحارث ، وقيل لام البنين بنت عتيبة بن الحارث ، تاج العروس (٩/٣٧٤) ، اللسان (١٧/٦٣٠) ، تاج العروس (٩/٥١٠) ، (لاه)، (تروحنا من اللعباء قصرا) ، ابن الاجدابي الازمنة والانواء (٧٩) .
٥ بالضم
٦ تاج العروس (١٠/١٣٧) ، (ذكو) .
٧ الاصابة (١/٥١) ، رقم (١٢١) .

صلاة الضحى ، وهي صلاة كانت تعرفها قريش ، ولم تنكرها ، أمكننا الربط بين استقبال الشمس ضحى وبين هذه الصلاة .

وقد لاحظ بعض السياح ان آثار عبادة الشمس والقمر لا تزال كامنة في نفوس بعض الناس والقبائل،حيث تتجلى في تقدير هذين الكوكبين وفي تأنيب من يتطاول عليهما بالشتم أو بكلام مسيء وفي تعظيمها من بين سائر الكواكب تعظيماً يشير إلى انه من بقايا الوثنية القديمة على الرغم من إسلام أولئك المعظمين[1] .

ويلي الشمس والقمر (الزهرة) ، وهي ذكر في النصوص العربية الجنوبية ، ويسمى (عثتر) . وهو بمثابة (الابن) للشمس والقمر . وهذا الثالوث الكوكبي يدل ، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين ، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم . وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكوّنة من ثلاثة أرباب،هي : الأب وهو القمر ، والابن وهو الزُّهرة ، والأم وهي الشمس .

وإذ كان القمر هو الأب وكبير الآلهة الثلاثة ، صار اسمه في طليعة من يذكر اسمه من الآلهة في النصوص ، وصارت له كنى ونعوت كثيرة لا تجاريها في الكثرة نعوت الآلهة الأخرى،وبه تسمى أشخاص كثيرون . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين على إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين على سبيل التغليب . وهذا المركز الذي يحتله القمر في ديانة العرب الجنوبية ، لا نجده في أديان الساميين الشماليين عن الساميين الجنوبيين[2] . كما يصح اعتبار تذكير (الزهرة) (عثتر) عند العرب الجنوبيين ، من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية الجنوبية ، فإن (الزهرة) هي أنثى عندهم .

وعبد بعض أهل الجاهلية أجراماً سماوية أخرى،وتقربوا اليها بالنذور والصلوات . ففي كتب الأخباريين ان طائفة من تميم عبدت (الدّبران) ، وان (العيوق) في زعمهم (عانق الدبران لمّا ساق إلى الثريا مهراً ، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً ، فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، ولذلك سمّوا هذه النجوم القلاص)[3] .

---

١ Handbuch, I, S. 199, 201, 205, W. Gifford Palgrave, Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, London, 1866, 250, A. Grahmann, Arabien, S. 81.

٢ Handbuch, I, S. 213.

٣ بلوغ الارب (٢/٢٣٩) ، ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (٧١) .

وفي كتبهم أيضاً ان بعض قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش عبدوا (الشعرى العبور) ، وان أول من سنّ ذلك لهم ، وأدخل تلك العبادة اليهم(أبو كبشة) . وهو (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي) ، أو (وجز ابن غالب) ، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان ، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته . خالف قريشاً في عبادة الأصنام وعبد الشعرى العبور . وكان (وجز) يقول : إن الشعرى تقطع السماء عرضاً ، فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمراً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضاً . والعرب تسمي الشعرى العبور ، لأنها تعبر السماء عرضاً ، ووجز هو أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،اليه ، والعرب تظن ان أحداً لا يعمل شيئاً إلا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دينَ قريش ، قالت قريش : نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى. وكانوا ينسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه . وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة ، لم يعيروا رسول الله صلى الله عليه وسلم به من تقصير كان فيه ، ولكنهم أرادوا أن يشبهوه بخلاف أبي كبشة ، فيقولون : «خالف كما خالف أبو كبشة »[1] . وذكر (القرطبي) ان أول من عبد الشعرى (أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمّون النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ابن أبي كبشة ، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم ، وقالوا : ما لقينا من ابن أبي كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح ، وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تمرّ عليه : لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة)[2]. وكان (الحارث) ، وهو (غبشان بن عمرو بن بؤي بن ملكان) ، ويكنى أبا كبشة ، ممن يعبد الشعرى[3] .

و (الشعرى) Sirius هي المقصودة في الآية : « وإنه هو ربّ الشعرى»[4] . وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى . وهو النجم

---

١ الزبيري ، كتاب نسب قريش (٢٦١ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٤٢/٤) ، (كبش) .
٢ تفسير القرطبي (١١٩/١٧) ، تفسير الطبرسي (١٨٣/٢٧) ، (١٨٣/٩) ، (طبعة طهران) ، المحبر (١٢٩) ، ابن سعد ، طبقات (١/١ ص ٣١) .
٣ المحبر (١٢٩) .
٤ النجم ، الآية ٤٩ .

الوقاد الذي يتبع الجوزاء ، ويقال له المرزم[1] . وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم[2] .

وذكر بعض العلماء أن (الشعرى) كوكب نير يقال له المرزم ، وطلوعه في شدة الحر . وتقول العرب إذا طلعت الشعرى ، جعل صاحب النحل يرى . وهما: (الشعريان) : العبور ، والشعرى الغميصاء . تزعم العرب أنهما أختا سهيل . وعبدت طائفة من العرب الشعرى العبور . ويقال : إنها عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها عرضاً غيرها . وسميت الأخرى الغميصاء ، لأن العرب قالت في حديثها: إنها بكت على أثر العبور حتى غمصت[3] .

والعرب تقول في خرافاتها : إن سهيلاً والشعرى كانا زوجين ، فانحدر سهيل فصار يمانياً ، فاتبعتـــه الشعرى العبور فعبرت المجرة فسمّيت العبور ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناه ، فسميت غمصاء لأنها أخفى من الأخرى[4] .

ويذكرون أن بعض طيء عبدوا (الثريا) ،وبعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم) ، وأن (كنانة) عبدت القمر[5] . ويتبين من بعض الأعلام المركبة ، مثل : عبـــد الثريا ، وعبد نجم ، أن الثريا ونجماً ، كانا صنمين معبودين في الجاهلية[6] . وقد ذهب بعض المفسرين الى أن (النجم) المذكور في سورة (النجم) : (والنجم اذا هوى)[7] : الثريا[8] (والعرب تسمي الثريا نجماً)[9] . وقال بعض آخر : « إن النجم ههنا الزهرة ، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها »[10] .

---

١ تفسير الطبري (٢٧/٤٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٤١) ، (جوز) ، القرطبي ، الجامع (١٧/١١٩ وما بعدها) .

٢ تفسير القرطبي (١٧/١١٩) .

٣ تاج العروس (٣/٣٠٥) ، (شعر) .

٤ تفسير القرطبي (١٧/١١٩ وما بعدها) .

٥ بلوغ الارب (٢/٢٤٠) ، تاج العروس (٨/٣١١) ، (رزم) .

٦ Ency. Religi. I, p. 66.

٧ سورة النجم ، الآية ١ .

٨ تفسير الطبري (٢٧/٢٤) .

٩ تفسير القرطبي (١٧/٨٢ وما بعدها) .

١٠ المصدر نفسه .

وعبدّ بعض الجاهليين (المريخ) ، واتخذوه إلهاً ، كما عبد غيرهم (سهيلا) Canapus و (عطارد) Merkur و (الأسد) Lion و (زحل) .

وقد ذكر أهل الأخبار ، ان أهل الجاهلية يجعلون فعلاً للكواكب حادثاً عنه. فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وكانوا يجعلون لها أثراً في الزرع وفي الانسان ، فأبطل ذلك الاسلام ، وجعله من أمور الجاهلية . جاء في الحديث : « ثلاث من أمور الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء»[1].

ومن مظاهر الشرك المتجلي في التعبد للأمور الطبيعية الملموسة ، عبادة الشجر، وهي عبادة شائعة معروفة عند الساميين . وقد أشار (ابن الكلبي) الى نخلة (نجران) ، وهي نخلة عظيمة كان أهل البلد يتعبدون لها ، (لها عيد في كل سنة . فإذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحليّ للنساء ، فخرجوا اليها يوماً وعكفوا عليها يوماً)[2] . ومنها العزى وذات أنواط . يحدثنا أهل الأخبار عن ذات أنواط ، فيقولون : (ذات أنواط : شجرة خضراء عظيمة ، كانت الجاهلية تأتيها كل سنة تعظيماً لها ، فتعلق عليها أسلحتها وتذبح عندها ، وكانت قريبة من مكة . وذكر انهم كانوا إذا حجّوا، يعبقون أرديتهم عليها ، ويدخلون الحرم بغير أردية ، تعظيماً للبيت،ولذلك سميت (ذات أنواط)[3] . (وقد روي ان بعض الناس قال : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)[4] .

ونستطيع أن نقول إن آثار عبادة الشجر لا تزال باقية عند الناس . تظهر في امتناع بعضهم وفي تهيبهم من قطع بعض الشجر ، لاعتقادهم أنهم إن فعلوا ذلك أصيبوا بنازلة تنزل بهم ويمكروه سيحيق بهم . ولذلك تركوا بعض الشجر كالسدر فلم يتعرضوا له بسوء[5] .

وتعبد بعض أهل الجاهلية لبعض الحيوانات . فقد ورد أن جماعة الشاعر (زيد الخيل) ، وهم من طيء ، كانوا يتعبدون لجمل أسود . فلما وفد وفدهم على

---

١ ابن الاجدابي ، الازمنة والانواء (١٣٦) .
٢ البلدان (٨/٢٦٠) ، (نجران) .
٣ البلدان (١/٣٦٣) ، (أنواط) ، تاج العروس (٥/٢٣٦) ، (فوط) ، الازرقي (٧٤ وما بعدها) .
٤ رسالة الغفران (١٤٠ وما بعدها) .
٥ Grahmann, S. 82.

الرسول ، قـال لهم : « ومن الجمل الأسود الذي تعبدونـه من دون الله عزّ وجلّ »[1] . وورد أن قوماً كانوا بالبحرين عرفوا بـ(الأسبذيين) ، كانوا يعبدون الخيل[2] . ذكر أنهم قـوم من المجوس ، كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين[3] . فهم فرس . وأن بعض القبائل مثل (إياد) ، كانت تتبرك بالناقة[4].

الشفاعة :

والشفاعة من أهم مظاهر الشرك عند الجاهليين . وأقصد بالشفاعة هنـا ، ما ورد في القرآن الكريم من تبرير أهل الجاهلية لتقربهم الى الأصنام بأنهم ما يتعبدون لها إلا لتقربهم الى الله : « ويعبدون من دون الله مـالا يضرّهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[5] . « والذين اتخذوا من دونه أولياء . مـا نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . إنّ اللهَ يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون»[6]. فهم يحاجّون الرسول ، ويدافعون عن التقرب الى الأصنام ، بقولهم : إنها تشفع عند الله ، فهي شفيعة ، فهم لا يعبدون الأصنام إذن ، ولا يشركون بالخالق ، وإنما هم يتقربون اليه بها . فهي الواسطة بينهم وبين الله[7] .

الأصنام :

ومن جملة ما كان يتوسط به الجاهليون لآلهتهم ليكونوا شفعـاء لهم عندها ، التماثيل المصنوعة من الفضة أو الذهب أو الحجارة الثمينة والخشب . ومن عادتهم انهم كانوا يدونون ذلك على الحجارة ، فيكتبون عدد التماثيل وأنواعها وأسماء الآلهة أو اسم الإلـه الذي قدمت له تلك الأشياء واسم الناذر ، ويشار إلى السبب الداعي

---

١ الاغاني (٤٧/١٦) ، الاصابة (٥٥٥/١) ، (رقم ٢٩٤١) .
٢ البلاذري ، فتوح (٨٩) ، (البحرين) .
٣ اللسان (٤٩٣/٣) ، (سبذ) .
٤ الاغاني (٩٣/١٥) ، « في أخبار أبي دواد الايادي » .
٥ سورة يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٨ .
٦ الزمر ، الآية ٣ .
٧ المفردات ، للاصفهاني (٢٦٤) .

إلى ذلك ، كأن يذكر بأن أصحابها توسلوا إلى الإلـه أو الآلهة المذكورة برجائهم الذي طلبوه ، فأجيبت مطالبهم ، ولذلك قدموا هذه النذور ، فهي وفاء لديـن استحق عليهم بسبب ذلك النذر وتلك الشفاعة .

ولا بد لنا من الاشارة هنا إلى ان الأصنام كانت تدافـع عن قبائلها وتذب عنها وتحامي عنها في الحرب ، كما يدافع سيد القبيلة عن قبيلته ، وان أبناء القبيلة أبناؤها وأولادها ، ولذلك كانوا يقولون عنها (اب) (أب) في كتاباتهم ، ويكتبون عن أنفسهم (أبناء الصنم ...) . وفي الشعر الجاهلي أمثلة عديدة تشير إلى اعتقاد القوم باشتراك آلهتهم معهم في الحرب وفي انتصارهم لهم . ففي الحرب التي وقعت بين (بني أنعم) و (بني غطيف) بشأن الصنم (يغوث) ، يقول الشاعر :

وسارَ بنا يغوثُ إلى مرادٍ فناجزناهمُ قبـل الصباح[1]

وطبيعي أن يعد أعداء القبيلة أعداء لصنم القبيلة ، وأعداء الصنم أعداء للقبيلة ، فأعداء الآلهة وأعداء القبيلة هم خصوم لا يمكن التفريق بينهم .

وفي معركة أحد ، وهي من المعارك الحربية المهمة الـتي جرت بين الإسلام والوثنية على مستقبل العرب الديني ، نادى أبو سفيـان بأعلى صوته : « اعلُ هُبَل ! اعلُ هبل ! » ، ليبعث الحماسة في نفوس الوثنيين ، وليستغيث بصنمه في الدفاع عن أتباعه المؤمنين به . أما المسلمون ، فاستنجـدوا بالله ، إذ ردّوا عليه ردّة قوية عالية : « الله أعلى وأجل » . فقال أبو سفيان : « ألا لنا العزى ولا عُزى لكم » . فأجابه المسلمون : « الله مولانا ولا مولى لكم »[2] .

وفي الحروب يحارب كل إلـه عـن قبيلته ، ويجهد نفسه في الدفاع عنها في سبيل حصولها على النصر . ولهذا السبب كانت القبائل والجيوش تحمـل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها في الحروب . تتبرك بهـا وتستمد منها العون والنصر . ولمـا حارب الأعراب الملك (سنحاريب) ملك آشور ، حملوا أصنامهم : (دبلت) (دبـلات) Diblat ، و (دية) Daia = Daja

---

١ البلدان (٥١١/٨) .
٢ الطبري (٥٢٦/٢) . « معركة أحد » .

و (نوخيا) Nuhaia و (ابيريلو) Ebirillu و (عثر قرمية) Atar Kurumaia ، معهم لتدافع عنهم،ولتحارب معهم الآشوريين. ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم وأخذوا غنائم وأسرى منهم ، كان في جملتها هـذه الأصنام المسكينة ، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها الى أن توفي (سنحاريب) وتولى ابنـه (أسرحدون) الحكم ، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة، رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم اليهم ، فرقّ على حالهم وأعاد اليهم تلك الأصنام السيئة الحظ ، التي كتب عليها أن تسجن،وتمكنت من استنشاق ريح الحرية من جديد[1] .

وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوريـين ، وذلك في أيام (أسرحدون) ، فلما انضم (لبلي) (ليل) Laili ملك (يادي) (يادع) (يدي) (يدع) Jadi' = Jadi' إلى الثائرين على حكم هذا الملك ، لحقت بهم الهزيمة ، وسقطت أصنامه أسيرة في أيدي الآشوريين ، وأخذت إلى (نينوى) ، فلم يجد الملك (ليل) (ليلي) أمامه من سبيل سوى الذهاب إلى عاصمـة الملك لاسترضائه ، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معه ، وأعاد اليه أصنامه[2] .

وكان في جملة الأصنام التي شاء سوء طالعها الوقوع في أسر الآشوريين الصنم (اترسمين) (اترسمائين) (Atarsamin) (A-tar-sa-ma-a-a-in) . و (اتر) هو (عثتر) ، فيكون المراد به (عثتر السماء) عثتر السماوات ، ويـدل ذلك على أنه إلـه السماء . وكان قد وقـع أسيراً في أيديهم ايام الملك (أسرحدون) ، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه (أشور بانبال)، جاء Uaite العربي اليه ، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك،وصالحه وأرضاه، فأعاد اليه أصنامه ومنها الصنم المذكور[3] .

وطالما كان يعرض حمل المحاربين أصنامهم معهم في الحروب الى وقـوع تلك الأصنام في الأسر ، تقع كما يقع الإنسان في الأسر . بل يكون أسر الأصنـام في نظرهم أشدّ وقعاً في نفوسهم من أسر الإنسان . إنها آلهة تدافع وتحامي ، إنهـا

١ Musil, Deserta, p. 481, Reall., II, S. 265, Thompson, Prisms of Esarhaddon and of Ashurbanipal, p. 20.

٢ Musil, Deserta, p. 483, Realb., I, S. 440, Rawlinson, The Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, Vol. II, p. 470 - 471.

٣ Reall., I, 310, Schrader, KAT., S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliotheck, VIII S. 72.

آلهة القبيلة كلّها ، فأسرها معناه في عرفهم أسر القبيلة كلها ، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة الى القبيلـــة . وقد أشرت الى استيلاء الآشوريين على أصنام قبائل (عربي) التي حاربتهم ، والى أخذها أسيرة الى أرض آشور ، والى مفـاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام اليهم . فلما أعيدت الأصنام الى أصحابها ، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر ، وبانتصار آلهة آشور عليها ، لتكون نذيراً للمؤمنين بها ، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسر جديد .

وقد أشير الى (خيل اللات) في مقابل (خيل محمد) ، في شعر لأبـي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ، إذ قال :

لعمرك إني يوم أحمـل راية لتغلب خيل الله خيل محمد[1]

ومن أمثلة العرب : (لا تفر حتى تفر القبة) ، أو (لا نفر حتى تفـــر القبة)[2] . ويراد بالقبة : قبة الصنم ، أي خيمة الصنم التي تحمل مـع المحاربين وتضرب في ساحة القتال ، ليطوف حولها المحاربون،يستمدون منها العون والنصر . كما كانوا يستشيرون الأصنام عند القتال ، ويأخذون برأيها فيما تأمر به .

وحمل الأصنام مع القبيلة في ترحالها وفي حروبها وغزواتها يستلزم بذل عنايـــة خاصة بها للمحافظة عليها من الكسر ومن تعرضها لأي سوء كان . وعند نزول القبيلة في موضع ما توضع الأصنام في سمتها ، وهي خيمة تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل المدر . وتكون للخيمة بسبب ذلك قدسية خاصة ، وللموضع الذي تثبت عليه حرمة ما دامت الخيمة فوقه،وقد كانت معابد القبائل المتنقلة كلها في الأصل على هذا الطراز . ولم يكن من السهل على أهل الوبر تغيير طراز هـذا المعبد ، واتخاذ معبد ثابت ، لخروج ذلك على سنن الآبـــاء والأجداد . ولذلك لم يرض العبرانيون عن المعبد الثابت الذي أقامه سليمان ، لما فيه من نبذ للخيمة المقدسة التي كانت المعبد القديم لهم وهم في حالة تنقل من مكان إلى مكان .

واعتقاد القبائل أن أصنامها هي التي تجلب لهـا النصر والخسارة ، كان يؤدي في بعض الأحيان الى الإعراض عن الصنم المحبوب ونبذه ، نتيجة لانهزام القبيلة،

---

١ الاصابة (٤/٩٠) ، (رقم ٥٣٨) .
٢ المشرق ، السنة ١٩٣٨ م ، (الجزء الاول) ، (ص ١١) .

إذ يتبادر الى ذهن تلك القبيلة أن تلك الهزيمة التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم اقتداره في الدفاع عنها ، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه الى ربّ قويّ جديد . وقد يكون ذلك الرب هو ربّ القوية المنتصرة ، أو رب قبيلة من القبائل التي عرفت بتفوّقها في الحروب ، فيكون التوفيق حليف ذلك الرب . وهكذا الأرباب في نظر قبائل تلك الأيام كالناس لها حظوظ ، والحظ هو دائماً في جانب القوي .

وكان على كهّان صنم القبيلة المغلوبة ايجاد تفسير لعلة الهزيمة التي لحقت بعبدة ذلك الصنم ، والبحث عن عذر يدافعون به عن الصنم ، ويلقون اللوم فيه على أتباعه ، لتبرئة ذمته وابعاد المؤمنين به عن الشك في قدرته وعظمته . فكان من أعذارهم ، أن الهزيمة عقاب من الإلـه أرسله الى أتباعه لابتعادهم عن أوامره ونواهيه ، ولعدم إطاعتهم أحكام دينه ، ولمخالفتهم آراء رجال دينهم وكهّانه . ولن تنقشع عنهم النكبة ، ويكتب لهم النصر ، إلا إذا تابوا وعملوا بأوامر الكهّان وأرضوا الآلهة ، وعملوا بما أوجبته شريعتهم عليهم . وهكذا يلوم الكهان الناس، دفاعاً عن آلهتهم التي خلقوها بأنفسهم ، وحماية لمصالحهم القائمة على استغلال تلك المخترعات ، التي نعتوها آلهة وأصناماً .

ولما كانت الآلهة آلهة قبائل ، كان نبذ الفرد لإلـهه معناه نبذه لقبيلته وخروجه على إجماعها ، فلا يسع شخصاً أن يغير عبادة إلـه القبيلة إلا اذا خرج على قبيلته وتعبّد لإلـه آخر . فإن تغيير عبادة الأفراد لأصنامهم في نظر قدماء الساميين أمر إدّ ، هو بمثابة تبديل الجنسية في العصر الحاضر . إن عبادة الأصنام عبادة موروثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وليست بشيء اختياري ، فليس للرجل أن يختار الصنم الذي يريده بمحض مشيئته . إن الصنم دين وهو رمز للقبيلة ، والمحامي المدافع عن شعبه ، والرابطة التي تربط بين الأفراد ، فالخروج عليه معناه خروج على ارادة الشعب ، وتفكيك لوحدته ، وهو مما لا يسمح به وإلا تعرّض الثائر للعقاب[1] .

نعم ، كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرئاسة تغيير أصنام القبيلة ، أو تبديل دينها ، كما سنرى فيما بعد . فهؤلاء هم سادة ، والناس تبع لسادتهم ،

---

١ Robertson, p. 37. f.

وفي المثل : « الناس على دين ملوكهم » . لقد أضاف سادة أصناماً الى قبائلهم، فعبدت وتمسك أتباعهم بعبادتها ، وكأنهم قد تلقوا أوامرهم من السماء ، ونبذت قبائل بعض أصنامها ، بأمر من سادتها . ودخلت قبائل في الاسلام، لدخول سيدها فيه ، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية، بتنصر سادتها، بكلمة أقنعت الرئيس ، أو بعد محاورة ، أو بإبلال من مرض قيل له انه كان ببركة ذلك الدين، فدخل أتباعه في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب .

عبادة الأصنام :

ويتبين من غربلة روايات الأخباريين ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام، حتى كان أهل كل دار قد اتخذوا صنماً في دارهم يعبدونه . « فإذا أراد الرجل منهم سفراً ، تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه الى سفره ، واذا قدم من سفره تمسح به ، فكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله »[1]. وقد كان أشق شيء في نظر قريش نبذ تلك الأصنام وتركها وعبادة إلٰه واحد « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، ان هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »[2] .

يقول ابن الكلبي : « واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً . ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ... فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه ربّاً، وجعل ثلاث أثافي لقدره . فإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر ، فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها »[3] . وروي أنه لم يكن حيّ

---

١ ابن هشام (١/٦٤) « هامش الروض » ، ابن هشام (١/٨٤) ، الاصنام (٣٢) . خزانة الادب (٣/٢٤٥) .
٢ سورة ص ، الآية ٤ وما بعدها .
٣ الاصنام (٣٣) .

من أحياء العرب إلا وله صنم يعبده يسمونه : « أنثى بني فلان . ومنه قوله تعالى : إن يدعون من دونه إلاّ إناثاً[1] . والإناث كل شيء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة »[2] . وقد كان المشركون يعبدون الأصنام « ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك »[3] .

ولم يذكر (ابن الكلبي) العوامل التي دفعت بعبدة الأحجار الى اختيار أربعة أحجار من بين عدد عديد من الأحجار ، ثم اختيار حجر واحد من بين هذه الأحجار الأربعة المختارة . فهل أخذ هذا العدد من نظرية العناصر الأربعة التي وضعها الفيلسوف (امبدوكلس) (Empedokles) (٤٩٠ — ٤٣٠ قبل الميلاد). نظرية أن الكون قد تكوّن من عناصر أربعة هي : النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، فكانوا يختارون لذلك أربعة أحجار ، تمثل هذه القوى الأربع المكونة على رأي الناس في ذلك الوقت لأساس الكون ، ثم يختارون حجراً واحداً من بينها يكون أحسنها وأجملها ، ليكون رمزاً لها ، وممثلاً للإلـه .

وقد كان من الجاهليين من يختار الأحجار الغريبة فيتعبد لها . فإذا رأوا حجراً أحسن وأعجب تركوا الحجارة القديمة وأخذوا الحجارة الجديدة . قال (ابن دريد) : « الحارث بن قيس : وهو الذي كان اذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه فعبده . وفيه نزلت : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »[4] . فهذه هي عبادة الأحجار عند الجاهليين .

ولدينا أمثلة عديدة تفيد ان كثيراً من الجاهليين كانوا يحتفظون في بيوتهم بأصنام يتقربون اليها كل يوم . ولا يعني ذلك بالطبع ان تلك الأصنام كانت أصناماً كبيرة منحوتة نحتاً فنياً ، بل كان أكثرها تماثيل صغيرة ، وبعضها أحجاراً غير منسقة ولا منحوتة نحتاً جيداً ، وانما هي أحجار تمثل الصنم الذي يتقرب اليه المرء . روي ان (أحمر بن سواء بن عدي السَّدُوسي) ، كان له صنم يعبده، فعمد اليه فألقاه في بئر ، ثم جاء الى الرسول فأسلم[5] .

---

١ النساء ، الآية ١١٧ .
٢ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٣ تفسير الطبري (٥/١٧٩ وما بعدها) ، روح المعاني (٥/١٣٤) .
٤ الاشتقاق (٧٦) .
٥ الاصابة (١/٢٢) .

وكان بين الجاهليين قوم كرهوا الأصنام وتأففوا منها ، رأوا انها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع ، فلم يتقربوا اليها ، وقالوا بالتوحيد ، ومن هؤلاء (مالك بن التيهان) ، وهو من الأنصار ومن المسلمين الأولين الذين دخلوا في الاسلام من أهل (يثرب) ، و (أسعد بن زرارة)[1] .

وقد شك بعض المستشرقين في وجود أصنام عند العرب الجنوبيين[2] ، ويظهر أن الذي حملهم على قول هذا القول ، هو ما رأوه من تعبد العرب الجنوبيين لإلهة منظورة في السماء هي الكواكب الثلاثة المعروفة ، فذهبوا الى انتفاء الحاجة لذلك الى عبادة أصنام ترمز الى تلك الآلهة . وعندي أن في اصدار رأي في هذا الموضوع نوع من التسرع ، لأننا لم نقم حتى اليوم بحفريات علمية عميقة في مواضع الآثار في العربية الجنوبية حتى نحكم حكماً مثل هذا لا يمكن إصداره إلا بعد دراسات علمية عميقة لمواضع الآثار ، فلربما تكشف دراسات المستقبل عن حلّ مثل هذه المشكلات . إن الإسلام قد هدّم الأصنام وأمر بتحطيمها ، فذهبت معالمها ، إلا أنه من الممكن احتمال العثور على عدد منها ، لا زال راقداً تحت التربة ، لأنه من الأصنام القديمة التي دفنت في التربة قبل الاسلام بسبب دمار حلّ بالموضع الذي عبد فيه ، أو من الأصنام التي وصلت اليها أيدي الهدم ، فطمرت في الأتربة ، وعلى كلّ فالحكم في هذا الرأي هو كما ذكرت للمستقبل وحده ، وعليه الاعتماد .

والرأي الذائع بين الأخباريين عن كيفية نشوء عبادة الأصنام قريب من رأي بعض العلماء المحدثين في هذا الموضوع . عندهم أن الناس لم يتعبدوا في القديم وفي بادىء بدء للأصنام ، ولم يكونوا ينظرون اليها على أنها أصنام تعبد ، إنما صوّروها أو نحتوها لتكون صورة أو رمزاً تذكرهم أو يذكرهم بالإلـه أو الآلهة أو الأشخاص الصالحين . فلما مضى عهد طويل عليها ، نسي الناس أصلها ، ولم يعرفوا أمرها ، فاتخذوها أصناماً وعبدوها من دون الله . وتحملنا رواياتهم في بعض الأحيان على الاعتقاد أنهم كانوا يعتقدون بعقيدة المسخ ، كالذي رووه عن الصنمين إساف ونائلة من أنهما « رجل وامرأة من جرهم ، وأن إسافاً وقع عليها في الكعبة فمسخا »[3] ، وبعقيدة التقمص كالذي رووه عن الصنم اللات من أنه كان إنساناً

---

١ طبقات ابن سعد (٤٤٨/٣) « صادر » .

٢ Arabien, S. 247.

٣ الروض الأنف (٦٤/١) .

من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو بن لحيّ : لم يمت ، ولكن دخل في الصخرة. ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات »[1] . أو كالذي رووه عن الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، من أن هؤلاء كانوا نفراً من بني آدم صالحين ، « وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا الى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوّروهم فلما مـــاتوا ودبّ اليهم ابليس ، فقال إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[2] .

وهذه العقيدة هي التي خلقت للأخباريين جملة قصص عن وجود أرواح كامنة في تلك الأصنام ، كانت تتحدث الى الناس ، وهـــي التي أوحت اليهم بذلك القصص الذي رووه بمناسبة أمر النبي بهدم الأصنام ، من خروج جنّ من أجوافها حينما قام بهدمها المسلمون . وقد كان أولئك الجنة عـــلى وصفهم إناثاً ، والغالب انهن على هيأة زنجيات شمطاوات عجائز ، وقـــد نثرن شعورهن[3] . وهي صور مرعبة ولا شك في نظر الناس ، ومن عادة الناس منذ القديم أن يمثلوا الجنة على هيأة نساء طاعنات في السن مرعبات .

والخوف من هذه الأرواح أو الجنة التي كانت تقيم في أجواف الأصنام على رأي الجاهليين ، حمل بعض من عهد اليهم تحطيم تلك الأصنام عـــلى التهيب من الإقدام على مثل ذلك العمل خشية ظهورها وفتكها بمن تجاسر عليها. وهذا الخوف هو الذي أوحى اليهم ولا شك برواية القصص المذكور .

ويمثل الصنم قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يظن انها كامنة فيه[4] . وتكون الأصنام على أشكال مختلفة ، قد تكون على هيأة بشر ، وقد تكون على هيـــأة حيوان أو أحجار أو أشكال أخرى. ولهذه الأصنام عند عابديها مدلولات وأساطير. وهي تصنع من مواد مختلفة ، من الحجارة ومن الخشب ومن المعادن ومن أشياء أخرى بحسب درجة تفكير عبدتها وتأثرهم بالظواهر الطبيعية والمؤثرات التي تحيط

---

١ البلدان (٧/٣١٠) « اللات » .

٢ تفسير الطبري (٢٩/٦٢) .

٣ البلدان (٧/٣١٠) « اللاث » .

٤ Ency. Religi.. 7, p. 112.

بهم . وقد تستخدم خُشُبٌ خاصة تؤخذ من أشجار ينظر اليها نظرة تقديس واحترام في عمل الأصنام منها . ويتوقف صنعها على المهارة التي يبديها الفنان في الصنع . ويحاول الفنان في العادة ان يعطيها شكلاً مؤثراً له علاقة بالأساطير القديمة وبالكائن الذي سيمثله الصنم . وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده كأن يكون من حجارة البراكين ، وقد يكون من النيازك عبدها لظنه بوجود قوة خارقة فيها .

ولعبادة الأصنام صلة وثيقة بتقديس الصور Images . وكذلك بصور السحر Magical Images . فكل هذه الأشكال الثلاثة هي في الواقع عبادة . ونعني هنا بتقديس الصور ، الصور المقدسة التي تمثل أسطورة دينية أو رجالاً مقدسين كان لهم شأن في تطور العبادة ، أو جاءوا بديانة ، وأمثال ذلك ، فأحب المؤمنون بهم حفظ ذكراهم وعدم نسيانهم أو الابتعاد عنهم ، وذلك بحفظ شيء يشير اليهم ويذكرهم بهم ، وهذا الشيء قد يكون صورة مرسومة ، وقد يكون صورة محفورة أو منحوتة أو مصنوعة على هيأة تمثال أو رمز يشير الى ذلك المقدس[1] . فالصور المرسومة إذن ، هي نوع من العبادة أيضاً ، ينظر اليها نظرة تقديس وإجلال .

ونجد في روايات أهل الأخبار عن منشأ عبادة الأصنام عند العرب ما يؤيد هذا الرأي ، فهناك رواية طريفة عن الصنم (سواع) تزعم أن سواعاً كان ابناً لشيث ، وأن يغوث كان ابناً لسواع ، وكذلك كان يعوق ونسر ، كلما هلك الأول صورت صورته وعظمت لموضعه من الدين. ولما عهدوا في دعائه من الإجابة . فلم يزالوا هكذا حتى خلف الخلوف ، وقالوا : ما عظّم هؤلاء آباءنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر ، واتخذوها آلهة . وهناك رواية أخرى تزعم أن الأوثان التي كانت في قوم نوح ، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح . فلما هلكوا ، أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً ، وسموها بأسمائها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنوسخ العلم بها عبدت[2] .

---

١ Ency. Religi. Vol. 7, p. 110.

٢ الروض الأنف (١ /٦٢) ، تفسير الطبرسي (٥/٣٦٤) .

وهناك روايات عن أصنام جعلتها أشخاصاً مسخوا حجراً ، فعبدوا أصناماً ، وصاروا شركاء لله ، تعبد لها ، لأنها في نظرهم تنفع وتضر .

ونجد في أخبار فتح مكة ان الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الأنبياء والملائكة ، فأمر بها فمحيت. ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم مرصعة بالرصاص، وهبـــل أعظمها ، وهو وجاه الكعبـــة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون ، فأمر بها فكسرت[1] .

أما هذه الصور ، فقيل انها صور الرسل والأنبياء ، وبينها صورة (ابراهيم) وفي يده الأزلام يستقسم بها[2] .

الأصنام :

والصنم في تعريف علماء اللغة هو ما اتخذ إلهاً من دون الله،وما كان له صورة كالتمثال (مثال) ، وعمل من خشب ، أو ذهب ، أو فضة ، أو نحاس ، أو حديد ، أو غيرها من جواهر الأرض . وقال بعضهم : الصنم جثة متخذة من فضة ، أو نحاس ، أو ذهب ، أو خشب ، أو حجارة ، متقربين به الى الله ، فالشرط فيه أن يكون جثة : جثة انسان أو حيوان . وقيل : الصنم الصورة بلا جثة[3] . وذكر ان الصنم ما كان من حجر أو غيره[4] . وعرف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهو وثن[5] . و (الصنمة) ، الصورة التي تعبد[6] . وقد كان (المنطبق) صنماً من نحاس أجوف يكلمون من جوفه[7] .

---

١ ابن الاثير (٢/١٠٥) ، (فتح مكة) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣ وما بعدها) .
٢ (فترك عمر صورة ابراهيم عليه السلام ، حتى محاها عليه السلام) ، امتاع الاسماع (١/٣٨٣) ، الروض الانف (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٣ اللسان (١٥/٢٤١) (١٧/٣٣٣) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (٩/٣٥٨) ، (صنم) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، الاشتقاق (٣٠٢) ، الاصنام (٥٣) ، المفردات (٢٨٩) .
٤ الروض الانف (١/٦٢) .
٥ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) ، (صادر) .
٦ اللسان (١٢/٣٤٩) ، (صنم) .
٧ المحبـر (٣١٨) .

ووردت لفظة (صلم) في كتابات عثر عليها في أعالي الحجاز ، اسم علم لإلـه ازدهرت عبادته بصورة خاصة بمدينة (تيماء) . ويرجع بعض المستشرقين تأريخ ازدهار عبادة هذا الصنم الى حوالي سنة (٦٠٠) قبل الميلاد . وقد ورد اسمه علماً لأشخاص في الكتابات اللحيانية . ورمز عنه برأس ثور في كتابات قوم ثمود[١] .

وقد وردت كلمة (أصنام)[٢] و (أصناماً)[٣] و (الأصنـام)[٤] و (أصنامكم)[٥] في القرآن الكريم ، بحسب مواقع الكلمة في الجملة .

وذكر علماء اللغة أن كلمة (صنم) ليست عربية أصيلة ، وإنما هي معربـة وأصلها (شمن) (شنم) ، ولكنهم لم يذكروا اسم اللغة التي عربت منها[٦] . وترد اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية . وردت (صلمن) في نصوص المسنـد بمعنى (صنم) و (تمثال) ، و (مثال)[٧] . ووردت في لهجات عربيـة أخرى . وهي (صلمو) Salmo في لغة بني ارم ، ومعناها (صورة) . من أصل (صلم) بمعنى (صوّر) . وتقابل (صلم) في العبرانية[٨] .

وقد ورد في قصص أهل الأخبار أن (بني حنيفة) تعبدوا لصنم من حيس، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم جاعوا فأكلوه ، فقال الشعراء في ذلك شعراً يعيرون به (بني حنيفة) لأكلهم ربهم زمن المجاعة[٩] . وهو في رأيي من القصص الذي يضعه الخصوم في خصومهم للاستهزاء بهم .

---

١ Grimme, 23.

٢ الاعراف ، الآية ١٣٧ .

٣ الانعام ، الآية ٧٤ ، الشعراء ، الآية ٧٢ .

٤ ابراهيم الآية ٣٥ .

٥ الانبياء ، الآية ٥٧ .

٦ القاموس (٤/١٤١) ، اللسان (١٥/٢٤١) ، تاج العروس ، (٨/٣٧١) ، روح المعاني (١٣/٢١٠) ، خزانة الادب (٣/٢٤٤ وما بعدها) .

٧ (صلمن ذ صرفن وصلمنن ذ ذهبن) ، أي (تمثال من فضة ، وتمثالان من ذهب) ، راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، لغويدي (١٩) .

٨ غرائب اللغة (١٩٣) .

٩ الاعلاق النفيسة (٢١٧) .

الوثن :

وأما كلمة (وثن) ، فهي من الكلمات العربية القديمة الواردة في نصوص المسند. ويظهر من استعمال هذه الكلمة في النصوص مثل : (وليذبحن وثنن درا بخرفم ذبصم صححم انثيم وذكرم) ، أي (وليذبح للوثن مرة في السنة ذبحاً صحيحاً، أنثى أو ذكراً)[1] . ان الوثن هو الذي يرمز الى الإلـــه ، أي بمعنى الصنم في القرآن الكريم .

الصلم :

ويظهـر من استعـــمال كلمتي (صلمن) (الصلم) (صلم) و (وثن) (الوثن) ان هناك فرقاً بين الكلمتين في نصوص المسند ، فإن كلمة (صلمن) تعني في الغالب تمثالاً يصنع من فضة ، أو من ذهب ، أو من نحاس ، أو من حجر ، أو من خشب ، أو من أية مادة أخرى ويقدم الى الآلهـــة لتوضع في معابدها تقرباً اليها ، لاجابتها دعاء الداعين بشفائهم من مرض أو قضاء حاجة ، أي انها تقدم نذوراً . أما الوثن ، فإنه الصنم في لهجتنا ، أي الرمز الذي يرمز به الى الإلـه ، والذي يتقرب له الناس .

والوثن في رأي بعض العلماء،لفظة مرادفة لصنم. وقال بعض آخر : (المعمول من الخشب أو الذهب والفضة أو غيرها من جواهر الأرض صنم ، وإذا كان من حجارة ، فهو وثن)[2] . وذكر بعض آخر ان الصنم ما كان لـه صورة جعلت تمثالاً ، والوثن ما لا صورة له . « وقيل ان الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة ينحت ويعبد ، والصنم صورة بلا جثة . وقيل : الصنم مـــا كان على صورة خلقة البشر ، والوثن ما كان على غيرها » . « وقال آخرون: ما كان له جسم أو صورة ، فصنم ، فإن لم يكن له جسم أو صورة ، فهـــو وثن . وقيل : الصنم من حجارة أو غيرها ، والوثن ما كان صورة مجسمـــة .

---

١ المختصر ، لغويدي (١٨) .
٢ الاصنام (٣٣) ، (روزا) ، تاج العروس (٨/٣٧١) ، (صنم) ، (٩/٣٥٨) ، (وثن) ، القاموس (٤/١٤١ ، ٢٧٤) ، اللســـان (١٧/٣٣٣) ، خزانـــة الأدب (٣/٢٤٤ وما بعدها) ، سبائك الذهب (١٠١) .

وقد يطلق الوثن على الصليب وعلى كل ما يشغل عن الله » . وقال بعض آخر : « يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه »[1] . وذكر بعض آخر : « أصل الأوثان عند العرب، كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها »[2] .

وذكر علماء اللغة أن (الودع) وثن[3] . ولم يذكروا شيئاً عنه غير ذلك . وقد أطلق (الأعشى) على الصليب (الوثن) ، إذ قال :

تطوف العفـــاة بأبوابـه كطوف النصارى ببيت الوثن

(أراد بالوثن الصليب) . « قال عديّ بن حاتم : قدمت على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : القِ هذا الوثن عنك، أراد به الصليب ، كما سمّاه الأعشى وثناً »[4] .

فنحن اذن أمام آراء متباينة في معنى (الصنم) و (الوثن) . منهم من جعل الصنم مرادفاً للوثن ، أي في معنى واحد ، ومنهم من فرّق بينهما ، ومنهم من جعل الصنم وثناً والوثن صنماً . والظاهر ان مردّ هذا الاختلاف ، هو اختلاف استعمال القبائل للكلمتين ، فلما جمـــع علماء اللغة معانيها ، وقع لهم هـــذا التباين وحدث عندهم هذا الاختلاف في الرأي .

وترد في كتب الأدب واللغة لفظـــة (البعيم)[5] . اسم صنم ، والتمثال من الخشب ، وقيل الدمية من الصمغ[6] . والمِثال الشبه ، وما جعـــل مثالاً لغيره ، والتمثال . وهو الشيء المصنوع مشبهاً بخلق واذا قدرته على قدره . وذكر انهـــا الأصنام . وفي هذا المعنى وردت في القرآن الكريم : (ما هذه التماثيـــل ؟ أي

---

١ الروض الانف (٦٢/١) .
٢ اللسان (٤٤٣/١٣) ، (وثن) ، (صادر) .
٣ اللسان (٣٨٧/٨) ، (ودع) .
٤ اللسان (٤٤٣/١٣) ، (وثن) .
٥ البعيم ، كأمير .
٦ تاج العروس (٢٠٣/٨) ، (البعيم) ، الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) « روزا » .

الأصنام . وقوله تعالى : من محاريب وتماثيل ، هي صور للأنبياء)[1] . وذكر : التماثيل للأصنام ، والصورة ، والشيء المصنوع مشبهـاً بخلق من خلق الله . أي انسان أو حيوان أو نبات[2] . ويعبر عن التمثال والمثال بلفظة (امثلن) في العربيات الجنوبية . وردت في النصوص لمناسبة تقديم أصحابها تماثيل الى الآلهة لتوضع في معابدها وفاء لنذور نذروها لها[3] .

و (الدمية) الصورة المنقشة من الرخام ، أو عام من كل شيء ، أو الصورة عامة . والصنم ، والأصنام دمى . ومن أيمان الجاهليـة : لا والدمى ، يريدون الأصنام[4] . وذكر ان (الدمية) ما كان من الصمغ[5] .

و (البدّ) الصنم الـذي يعبد ، فارسي معرب . عرب من (بت) بمعنى (صنم)[6] . وذكر ان (البد) ، بيت الصنم والتصاوير أيضاً[7] .

وقد اشتغل بعض أهالي مكة بصنع الأصنام . فكان (عكرمة بن أبـي جهل) ممن يعملها بمكة[8] . وكان الأعراب اذا جاءوا مكة أو المواضع الحضرية الأخرى اشتروا الأصنام منها للتعبد لها[9] .

هيأة الأصنام :

وقد وصف (ابن الكلبي) ، وهو الراوية الرئيس والعـالم الكبير بالأصنام هيأة بعض الأصنام ، فذكر مثلاً أن الصنم (هبل) ، كان عـلى صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، أدركتـه قريش فجعلت له يداً من ذهب[10] . فهو تمثال إنسان اذن نحت من حجر أحمر أو وردي ، لا يستبعد أن يكون من عمـل بلاد

---

١ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٢ تاج العروس (٨/١١١) ، (مثل) .
٣ Jamme 558, MaMb 201, Mahram, p. 24.
٤ تاج العروس (١٠/١٣١) ، (دمى) .
٥ الاصنام (١٠٨) ، (تكملة) .
٦ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) ، غرائب اللغة (٢١٨) .
٧ تاج العروس (٢/٢٩٥) ، (بدد) .
٨ الازرقي (١/٧٧ وما بعدها) .
٩ الازرقي (١/٧٨) .
١٠ الاصنام (٢٧ وما بعدها) ، الازرقي (١/٦٨) .

الشأم أو من عمل الفنانين اليونان ، واستورد من هناك ، فنصب في جوف الكعبة . استورده أحد سادة (مكة) وهو (عمرو بن لحيّ) على رواية أهل الأخبار ، أو غيره ، لما رأى فيه من حسن الصنعة ودقة النحت . فوضعه في موضعه . ولم يذكر أهل الأخبار سبب كسر اليد اليمنى للصنم ، هل كان ذلك بسبب حادث ، او بسبب أسطوري . وأما (اللات) فصخرة بيضاء منقوشة [1] ، في رواية أكثر الأخبار . وتمثال من حجر على رواية [2] . وأما العزى ، فهناك رواية تذكر أنها كانت صنماً ، أي تمثالاً ، ولكنها لم تعين صورته على نحو ما تحدثت عنها في الفصل الخاص بالأصنام . واما (ود) فقد كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل [3] . وأما (سواع) ، فكان صنماً على صورة امرأة . ولا يستبعد أن يكون من بين الأصنام الباقية ما كان على صورة حيوان . فقد كان الصنم (نسر) يمثل النسر .

وأقصد بالأصنام في هذا المكان أصنام المعابد ، أي الأصنام التي كان الناس يتقربون اليها بالتعبد والنذور . وأما الأصنام الصغيرة ، وهي التماثيل التي كان يتعبد لها الناس في بيوتهم أو يحملونها معهم في أسفارهم أو يحملونها معهم حيث ذهبوا تبركاً بها . فقد كانت كثيرة ، لا يخلو منها انسان ، وكانوا يتقربون بها الى الأصنام الكبيرة . وقد عثر المنقبون على عدد كبير منها ، وهي متفاوتة في الحجم وفي الروعة ودقة الصنع والاتقان .

عبادة الاصنام :

ونظرية (ابن الكلبي) ومن لفّ لفّه من الأخباريين ان نسل اسماعيل بن ابراهيم لمّا تكاثر بمكة حتى ضاقت بهم ، وقعت بينهم الحروب والعداوات ، فأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد التماساً للمعاش . وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة .

---

١ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣ وما بعدها) .
٢ تفسير أبي السعود (٥/١١٢) .
٣ الاصنام (٥٦) ، (٣٥) « روزا » .

فحيثما حلّوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بهـا وصبابة بالحرم وحُباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على إرث ابراهيم واسماعيل .

(ثم سلخ بهم الى ان عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا ما كان يعبد قوم نوح منها ، عـلى إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عَرَفَة ومزدلفة ، واهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه)[1] .

فكان أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة .

وكانت أم عمرو بن لحيّ ، فهـيرة بنت عامر عمرو بن الحارث بن عمرو الجرهمي ، ويقال : قمعة بنت مضاض الجرهمي[2] .

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة . فلما بلغ عمرو بن لحيّ ، نازعه في الولاية ، وقاتل جرهماً ببني اسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة،ونفاهم عن بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم .

ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشأم حمّة إن أتيتها، برأت . فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها عـلى العدوّ . فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقـدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة . ثم أخذ عمرو ابن لحيّ في توزيع الأصنام على القبائل . وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين الناس[3].

---

١ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، ابن هشام (١ /٨٢) ، الروض الأنف (١/٦١) .

٢ الازرقي ، اخبار مكة (١/٤٦) .

٣ الاصنام (ص ٦ وما بعدها) ، الاشتقاق (٢٧٦) ، البلدان (٨/٤٠٨ وما بعدها) ، (ود) ، مروج الذهب (٢/٢٢٧) ، (ذكر البيوت المعظمة ، والهياكل المشرفة) ، سبائك الذهب (١٠١) ، الروض الانف (١/٦٤) ، البلدان (٤/٦٥٢ وما بعدها) (طهران ١٩٣٥) .

هذه رواية شهيرة معروفة بين الأخباريين عن منشأ عبادة الأصنام وانتشارها عند العرب . وفي رواية أخرى : « كان أول من اتخذ تلك الأصنام ، من ولد اسماعيل وغيرهم من الناس ، وسمّوها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين اسماعيل ، هُذيل بن مدركة »[1] . فنسبت هذه الرواية اتخاذ الأصنام الى هذيل .

وهناك روايات أخرى في هذا المعنى تتفق مع الرواية الأولى من حيث الجوهر ولا تختلف معها إلا في بعض التفاصيل ؛ ففي رواية ان (عمرو بن لحيّ) حينما قدم (مآباً) من أعمال البلقاء ، وهي يومئذ بأيدي العماليق ، ووجدهم يتعبدون للأصنام ، سألهم أن يعطوه صنماً منها ليسير به الى أرض العرب ليعبدوه، فأعطوه الصنم هبل ، فأخذه ، وقدم به الى مكة فنصبه ، وأمر الناس بعبادته[2] . فعينت هذه الرواية القوم الذين ذهب اليهم (عمرو بن لحيّ) ، والموضع الذي نزل به، وثبتت اسم الصنم الذي أخذه منهم . وهي زيادات لم نجدها في كتاب الأصنام . غير ان تشابه عبارات هذه الرواية التي ذكرها (ابن هشام) مع رواية (ابن الكلبي) ، يدل على ان المنبع واحد ، وانما الخلاف هو في ذكر بعض الفروع ، وفي اختصار بعض المواضع ، والإطناب في مواضع أخرى .

وفي رواية أخرى عن (ابن الكلبي) كذلك ، وهي في كتابه الأصنام ، ترجع أيضاً عبادة الأصنام الى عمرو بن لحيّ ، غير انها تروي الخبر في صيغة أخرى ، فتقول :

« وكان عمرو بن لحيّ ، وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد ، وهو أبو خزاعة ، وأمه فُهيرة بنت الحارث ، ويقال إنها كانت بنت الحارث بن مضاض الجرهمي ، وكان كاهناً . وكان قد غلب على مكة وأخرج منها جرهماً ، وتولى سدانتها .

---

١ الاصنام (ص ٩) ، نسب عدنان وقحطان ، للمبرد (٢٢ وما بعدها) ، المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (١/٩٤) ، ابن هشام (١/٧٨) ، (البابي) ، البلدان (٤/٦٥٢) ، (طهران) ، ابن خلدون (٢/٦٨٦) ، مروج الذهب (٢/٥٦ وما بعدها) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، أبو الفداء (١/٧٦) .

٢ ابن هشام (ص ٦٢) ، حاشية على الروض الانف ، ابن هشام (١/٨٢) ، ديوان حسان (p. 11) ، (هرشفلد) ، ابن هشام (١/٧٨ وما بعدها ، ١٢٠) .

وكان له رئي من الجن،وكان يكنى أبا ثمامة ، فقال له : عجل بالمسير والظعن من تمامة ، بالسعد والسلامة ! قال : جيّر ، ولا إقامة .

قال : ايت ضَفَّ جُدَّة ، تجد فيها أصناماً معـدة ، فأوردها تهامة ولا تهاب ، ثم ادع عبادتها قاطبة .

فأتى شطّ دجلة ، فاستشارها ، ثم حملها حتى ورد تهامة ، وحضر الحجّ ، فدعا العرب الى عبادتها قاطبة .

فأجابه عوف بن عُذْرة بن زيد اللآت بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة ابن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فدفع اليه ودّاً . فحمله الى وادي القُرى ، فأقره بدومة الجندل . وسمّى ابنه عبد ودّ . فهـو أول من سُمّي به ، وهو أول من سمّي عبد ودّ ، ثم سمعة العرب به بعد[1] .

فهذه الرواية هي على شاكلة الرواية الأولى في منشأ عبـادة الأصنام بين العرب قبل الاسلام بحسب رأي الأخباريين بالطبع ، سوى اختلافها عنها في المكان الذي أخذت الأصنام منه . فهنا (جُدَّة) على ساحل البحر الأحمر ، وهناك البلقاء من أعمال الشأم . والموضعان ، وإن كانا يختلفان موقعاً ، يتفقان في شيء واحد هو وقوعها على حدّ مقصود ، يرده الأجانب منذ القديم للاتجار . فهل يعني هـذا استيراد تلك الأصنام من الخارج ، من بلاد الشأم أو من مصر ، وانهـا كانت من عمل اهل الشأم او اهل مصر او من عمل الروم او الرومان ؟ وتذكر رواية أخرى ان (عمرو بن لحيّ) ، إنما جاء بالصنم (هبل) ، من (هيت) بالعراق حتى وضعه في الكعبة[2] .

وعمرو بن لحيّ هو على اختلاف الروايات أول من غيّر دين اسماعيل،فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي . فقـأ عين عشرين بعيراً ، فصارت العادة أن يفقأ عين الفحل من الإبل إذا بلغت الإبل ألفاً . فإذا بلغت ألفين ، فقئت العين الأخرى . وقد نسب اليه كلام طويل . وزُعم له عمر مديد ، وقصص أخرجه من عالم الواقع الى عـالم القصص والأساطير ، ورجـع عصره الى ايام (العماليق) والى ايام (سابور ذي الأكتاف). وذكر ان العرب

---

١ الاصنام (ص ٥٤ وما بعدها) .
٢ الازرقي (١/٧٣ وما بعدها) ، الروض الانف (١/٦٥) .

جعلته (رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة)[1]، وذكروا انه كان ملكاً على الحجاز ، وكان كبير الذكر في ايامه ، الى غير ذلك من قصص برووه عنه[2] .

وذكر (المسعودي) ، ان (عمرو بن لحيّ) حين خرج الى الشأم ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة،وأكثر من الأصنام ، وغلب على العرب عبادتها،انمحت الحنيفية منهم إلا لماماً ، ضج العقلاء في ذلك ، فقال (شحنة بن خلف) (سحنة بن خلف الجرهمي) :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربّ واحد أبداً ... فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مَهَلٍ ... سيصطفي دونكم للبيت حجابا[3]

وكان (عمرو بن لحيّ) كاهناً على ما يذكره أهل الأخبار[4] ، وهو من (خزاعة) ، التي انخزعت من اليمن . ثبت حكمه على مكة ، بعد أن انتزع الحكم من جرهم ، وغلب قومه عليها ، فصاروا يطيعونه ويتبعون ما يضعه لهم . وقد نسبوا اليه وضع بقية الأصنام ، مثل اللات واساف ونائلة ، فهو على رأي أهل الأخبار مؤسس هذه الأصنام التي بقيت الى أيام النبي ، والتي حطمت بأمره عام الفتح ، وباستيلاء المسلمين على المواضع الأخرى .

وذكر أهل الأخبار أن (عمرو بن لحيّ) كان أول من غيّر تلبية (ابراهيم). وكانت : (لبيك لا شريك لك . لبيك) ، فجعلها : (لبيك اللهم لبيك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما لك) ، وقد كان (ابليس) قد ظهر له في صورة شيخ نجديّ على بعير أصهب ، فسايره ساعة ، ثم لبى ابليس ، فلبى (عمرو) تلبيته حتى خدعه . فلبّاها الناس على ذلك[5] .

---

١ الروض الأنف (٦٢/١) ، البداية والنهاية (١٨٨/٢) .
٢ المختصر في أخبار البشر ، لابي الفداء (٩٤/١) .
٣ مروج الذهب (٢٩/٢ وما بعدها) .
٤ مروج الذهب (٣٠٣/٢) .
٥ الازرقي (١٢٦/١ وما بعدها) ، (٢٦/١ وما بعدها) ، ابن هشام (٧٩/١ وما بعدها) .

وقد قيل إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية مبلغه[1] . ويظهر أنه كان من أصحاب الحول والسلطان والجاه، ولذلك ترك هذا الأثر في روايات أهل الأخبار . واني أرى أنه لم يكن بعيد عهد عن الإسلام، وإلاّ لمَ حفظت ذاكرة أهل الأخبار أخبارها عنه . والظاهر أنه كان كاهناً من الكهّان ، ورجلاً كبيراً من رجال الدين .

وروي أن الرسول ذكر أن (عمر بن لحي بن قمعة) كان أول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة[2] .

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم (عمرو بن لحيّ) في قصة انتشار الأصنام في جزيرة العرب اقحاماً من غير أصل ولا أساس ، فلا بد من أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأصنام عند الجاهليين ، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا في عهد غير بعيد عن الاسلام ، لا قبل ذلك بكثير كما يدعي الأخباريون ، فما كان خبره ليصل اليهم على هذا النحو لو كان زمانه بعيداً عنهم البعد الذي تصوروه . وأنا لا أستبعد احتمال شراء (عمرو بن لحيّ) للأصنام من بلاد الشأم ومجيئه بها الى الحجاز ، ونصبه لها في الكعبة وفي مواضع أخرى ، لما وجده من حسن صنعة التماثيل في تلك البلاد ومن جودة حجارتها ، فاشترى عدداً منها ، لتنصب في المحجات ، فنسبت عبادة الأصنام اليه .

وزعموا أن (ابن أبي كبشة) : (جزء بن غالب بن عامر بن الحارث ابن غبشان الخزاعي)، كان ممن أدخل الشرك الى العرب ، وخالف دين التوحيد . لقد ذكروا أنه دعا الى عبادة (الشعرى العبور)[3] .

وليست عبادة الأصنام والأوثان عبادة خاصة بالعرب ، بل هي عبادة كانت معروفة عند غيرهم من الشعوب السامية ، وعند غير الساميين ، كما أنها لا تزال موجودة قائمة حتى الآن .

وكانت قريش تتعبد وتتقرب الى أصنام قبائل أخرى ، على شرط المثل ، أي أن تتقرب تلك القبائل وتتعبد لأصنام قريش . فقد ذكر (السكرى) أن قريشاً

---

١ أخبار مكة (٥٤) .
٢ الاستيعاب (١/١٢٠) .
٣ تاج العروس (٤/٣٤١) .

كانت تعبد صاحب كنانة ، وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[1] . وقد تمكنت قريش بفضل هذه السياسة الحكيمة من جمع أصنام العرب وضمها في الكعبة ، وهذا ما جعل القبائل تعظم هذا المجمع ، وتحج اليه كل سنة مرة ، في موسم الحج ، بالإضافة الى الأيام الأخرى من أيام السنة ، حيث تقع فيها العمرة . فربحت من ذلك ربحاً معنوياً ومادياً ، وصارت مكة سوقاً مستقرة ثابتة ، يقصدها الناس في كل وقت .

الحلف بالأصنام والطواغيت :

ولعقيدتهم المذكورة في الأصنام ، كانوا يحلفون بها وبالطواغيت . والظاهر أن هذه العادة بقيت في نفوسهم حتى في الإسلام . فقد ورد في الحديث : « أنه قال من حلف بغير الله ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا إلَه إلاّ الله »[2] ، و « من حلف ، فقال في حلفه واللات والعزى ، فليقل : لا إلَه إلاّ الله » ، ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك فليتصدق »[3] . وكانت ألسنتهم تسبقهم ، لما اعتادته من زمن الجاهلية من الحلف بالأصنام[4] .

---

١ المحبر (٣١٨) .
٢ ارشاد الساري (٩/٣٧٧) .
٣ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .
٤ تفسير ابن كثير (٤/٢٥٣) .